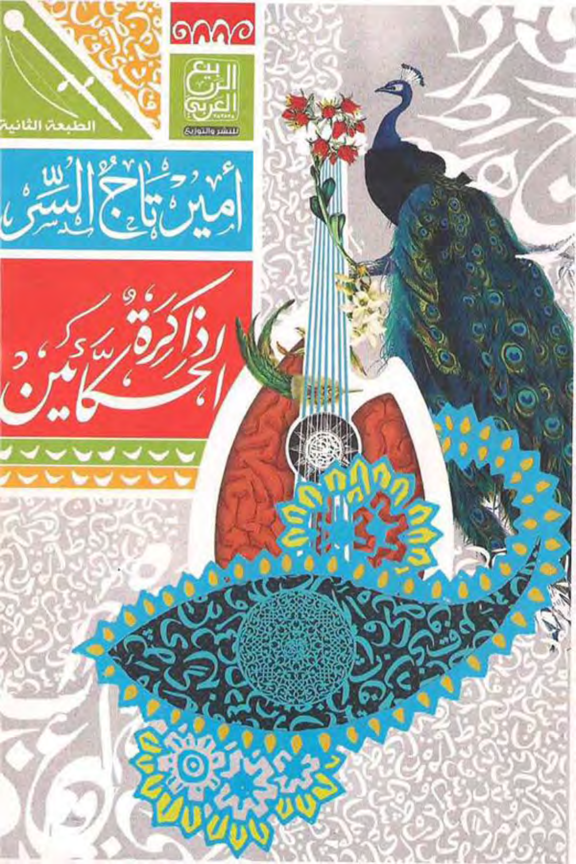

الطبعة الثانية
الربيع العربي
للنشر والتوزيع
أمين تاج السر
ذاكرة الحكائين


مكتبة
عابث
الإلكترونية

ذاكرة الحكائين

كلما قرأتُ نصًا حكائيًا للأديب المخضرم شوقي بدري، أحسستُ بالنشوة والضعف معا. النشوة من كونه، قطعًا، نصًا استثنائيًا عامرًا بجميع أطايب الحكي التي ربما لا يعرفها الكثيرون، ولم تخطر على بالهم قط، والضعف أمام تلك المعلومات الغزيرة التي يمنحها لقرائه مجانًا على الورق، وكلها عن بلد يعيش فيه الملايين من الناس وربما لا يعرفون إلا القليل عن تفاصيله. شوقي بدري، أو الأخ الأكبر كما يُلقب في منتديات الوطن المهاجرة، في رأيي، يعتبر الآن شيخًا لكتّاب الحكاية البسيطة، والأقرب للحكي الشفاهي، في السودان، رجل يقيم منذ سنوات طويلة جدًّا في بلاد الغرب، وتحديدًا في السويد، لكن ذهنه ما يزال (أمدرمانيًا) خالصًا، أي مرتبطًا بمدينة أمدرمان التي ربما تغيرت بعض معالمها الآن. في ذلك الذهن تسكن الشوارع والأزقة القديمة والحارات بغبارها وتوابلها وعطور شاغليها، يسكن الناس بجميع أعراقهم وقبائلهم، وما يستطيعون منحه للحياة والمجتمع، أو لا يستطيعون، تسكن الأحداث التي وقعت في زمان بعيد، بدءًا من شكوى أحدهم من ألم في ظهره، لا يعني أحدًا، في أحد الصباحات، إلى محاولة انقلاب عسكري مكتملة

الأركان، انطلقت خطواتها من حي ما وأحدثت خلخلة في البلد. وأيضًا الحوادث التي كان يمكن أن تقع، والتي لن تقع أبدًا، في مجتمع كان متماسكًا بدرجة غريبة، لدرجة أن شخير النائم في بيته، كان يوجد من يوثقه، وينقل تفاصيله للآخرين. في بساطة شديدة وبلغة هي نفسها لغة ذلك العالم البعيد، يمسك شوقي بدري بيدك، يقودك إلى بيت في حارة ضيقة من حارات (أبو روف، أو (ود نوباوي)، أو(عبد الله خليل)، لتأكل طبقًا من طبيخ شعبي لعله العصيدة أو الكسرة بالباميا، يقودك إلى ساحات الموالد والذِّكر، لتتمايل مع الدراويش، وتردد: حي قيوم.. إلى عراك الصبية في أحد الأزقة، على قطعة من رغيف يابس، وصياح الجارات حين يبحثن عن ملح أو سكر أو بصلة ينشئن بها طبيخًا للغداء. وإلى مجالس الرجال على الطر ق في تلك الدكك الطينية المشيدة أمام كل بيت تقريبًا، أو الكراسي منتوفة الحبال التي كانت أيضًا سمة من سمات ذلك الوقت، وربما طاف بك في السوق الشعبي، لتشتري قماشًا من تاجر قبطي، من أولئك الذين كانوا يسيطرون على تجارة القماش آنذاك، أو كيسًا من التنباك وارد مدينة «الفاشر» في الغرب أو نعالًا من جلد النمر والأصلة. هذا الحكَّاء المخضرم، لا يمكن بالقطع عنونته أو تصنيفه كاتبًا قصصيًا أو روائيًا، لا يمكن وصفه بالشاعر، ولكن خليطًا من دم القصاصين والروائيين والشعراء ومؤرخي العصور حين يكتبونها لنا بصدق وجدارة، وأيضًا بعفوية تامة بعيدة كل البعد عن التسلط اللغوي، والبحث عن

المفردات الأكثر ثقلًا، لردمها في حفر الحكاية. الذين كتب عنهم، هو عاصرهم بلا شك وله مواقف وحكايات معهم، وذكوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وأيضًا أسماء أمهاتهم عند الضرورة، وحتى البيوت ذات السُّمعة السيئة، يخبرك بمن كان يقطنها، ومن كان يتردد عليها، والذين لم يعاصرهم وورد ذكرهم في نصوصه، هو يطلعك على مصدر خبرهم، وكلما قرأت حكاية من تلك الحكايات الخليط، تصورتها طازجة تحدث أمامي الآن، وظللت مستمتعًا بها لفترة، لكن الرجل ما يلبث أن يأتي بغيرها مضيفًا مزيدًا من المتعة. تلك الحكايات الثرية التي وردت في كتابه «حكايات أمدرمانية»، المطبوع بإهمال شديد، وبلا تدقيق ولا تصحيح، ولا شُبهة تحرير للنصوص، أزعم أنها لم تأت من فراغ، ولكن من موهبة كبيرة ومن حرص على صيانة تلك الموهبة ومدها بالوقود الذي ينشطها، وكم من حكايات وأساطير يعايشها المرء في حياته، لكنه لا يتذكرها، فقط أولئك الموهوبون من يستطيعون نقشها لتبقى حية، على مر الزمن، وإذا كانت أمدرمان القديمة هي محور حكايات شوقي بدري، برغم ابتعاده الطويل عنها، فلا شك أنه يستطيع إن أراد أن يكتب لنا الكثير عن مدن أوروبا التي دخلها منذ زمن بعيد، وتغيرت أثناء وجوده فيها.

أخيرًا أحس بشيء من الأسى تجاه عدم الاهتمام بأمثال هؤلاء الحكائين المبدعين، هم في الحقيقة يكتبون، أو يحكون شفاهيا للمتعة الشخصية، أو الرغبة الجامحة في

إيصال أفكارهم، لكن في حكاياتهم ثراء غير معقول وهم جديرون بالاحتفاء، وقد كتبت في مقدمة كتابي السيري «قلم زينب» الصادر منذ عدة سنوات عن وزارة الثقافة والإعلام في قطر: إلى شوقي بدري، من جكاياته تستلهم الحكايات. أخيرًا أنوه بأنني عرفت حكائين شفاهيين كثيرين أثناء مصاحبتي للكتابة، وحقيقة، استلهمت منهم عددًا من تلك الحكايات التي كانت خامات جيدة، تبحث عمن يطورها، ويوثقها في نصوص مكتوبة.

القراءة المغشوشة

في مروري على أحد منتديات القراءة على الإنترنت، التي أطرقها من حين لآخر، إما لمعرفة نوع الكتب التي يفضلها معظم القراء، أو لتعميق الصلة بيني كمؤلف وبين من يطلعون على مؤلفاتي، عثرت على تعليق لأحد القراء، كتبه عن رواية مترجمة لأحد الكتاب الكبار، وكانت مقروءة بشدة، وذات حظ جيد من التعليقات الإيجابية، كتب يقول: رواية سخيفة، سطحية، ذات لغة ركيكة، وبلا هدف، ولا تستحق الوقت الذي أضعته فيها.

ولأن القارئ لم يذكر أي شيء يدل على قراءته للرواية، واستخلاص تلك الألفاظ غير اللائقة ليلصقها بها، ولا كانت ثمة مراجعة حتى لو من خمسة أو ستة أسطر، تبين لنا سطحية العمل وركاكة لغته، عمدت إلى تتبع ذلك القارئ، في الرف الافتراضي الذي وضع عليه كتبه، وتعليقه على الكتب التي قرأها من الرف، فعثرت على نفس التعليق الذي ذكرته، إما بنفس الطريقة، أو مُعدَّلًا قليلًا إلى الأسوأ، موضوعًا على معظم الكتب، التي ذكر بأنه قرأها وقيَّمها بعدم استحقاقها لأي شيء. وعثرت على عدد من أصدقائه، يؤيدون كلامه، وأيضًا بلا إشارة إلى أنهم قرأوا تلك

النصوص، أو لم يقرأوها، ولم يكن ذلك القارئ وحده في التجنّي على الكتب بلا هدف واضح، ولكن عثرت بعد ذلك على كثيرين ينتهجون نفس النهج.

هذا ما أسميه القراءة المغشوشة، أو وهم الثقافة عند البعض، بلا ثقافة، والمشاركة في نقاش يدور حول كتاب معين، أو شريط سينمائي، أو أي شيء له علاقة بالإبداع، من دون الاطلاع على المادة موضوع النقاش، ولأن الفضاء افتراضي رحب، والوجوه مغطاة بالأقنعة، وما يقال، لا يوجه مباشرة إلى من سيرد في نفس اللحظة، فقد كثرت مثل تلك الادعاءات، وكثر متابعوها والمروجون لها، وبالتالي مزيد من التدني في الوعي المعرفي، وتشريد الناس من سكة القراءة الصحيحة. وأعرف يقينا إن هناك من يدخل تلك المنتديات بنيَّة التعرف على الكتب التي شدَّت غيره، ويمكن أن تشده من أجل أن يقتنيها، وغالبًا ما يكون أولئك حديثي عهد بالقراءة، وبالتالي سهل جدًّا هروبهم من الطريق بتعثرهم في أول حجر يصادفهم، أو توهانهم في درب لم يكن ممهدًا جيدًا.

لقد كانت مثل تلك الأوهام في الماضي، صعبة ارتداؤها، لأن النقاش الثقافي كان مباشرًا، في مقهى أو حتى في دكة أمام أحد البيوت، والذي يتحدث عن كتاب خيرًا أو شرًّا، ينكشف سريعًا لأن هناك من سيورطه بلا شك، في صفحة من صفحات ذلك الكتاب، وأذكر أنني حين كنت طالبًا في مصر، أواخر ثمانينيات القرن الماضي، وأثناء جلوسي في

المقهى بصحبة عدد من المثقفين، أن بدأ الحديث عن رواية: خريف البطريرك، للعملاق الراحل جارسيا ماركيز، وكانت مترجمة حديثًا، وقرأها معظم المثقفين تقريبًا، ولم أكن قد قرأتها في ذلك الوقت، لكني عقبت بأنها رواية رائعة وسلسة، فطلب مني أحدهم أن أخبره بأكثر ما أعجبني فيها، وبالطبع لم أستطع أن أخبره، وتركت تلك الجلسة مرغمًا، ثم لأكتشف بعد أن الرواية لم تكن سلسة، وأن ماركيز نفسه تحدث عن صعوبتها، وأنها كانت أكثر النصوص التي أصابته بالكآبة، أثناء عملية الكتابة.

ومنذ عامين، التقيت بكاتب شاب في أحد أسفاري، وأخبرني في حماس إنه أحد قرائي المخلصين، إضافة لقراءته الدائمة للزميل العراقي المتألق: علي بدر، وإنه ينتظر إصداراتنا بلهفة حتى يضعها في أولويات قراءاته، سألته بتلقائية عن أكثر الكتب التي أعجبته عندي وعند زميلي، فرد بسرعة: كلها. ولا أدري لماذا لم أصدق ذلك الشاب وعمدت إلى اختراع اسم لرواية لم أكتبها حقيقة، ووجدته يثني عليها بشدة، ويردد بأنها من الأعمال التي لا تُنسَى!

هناك شيء آخر، وهو تبنِّي إنتاج المبدع ومواقفه، خاصة بعد وفاته، لدى أشخاص لم يعرفوه حيًّا، ولم يقرأوا أي شيء من مؤلفاته، وربما عرفوه وأساءوا إليه أثناء حياته، وأعرف أشخاصًا كثيرين لم يقرأوا للطيب صالح حرفًا واحدًا ولا كان إبداعه في دائرة اهتمامهم يومًا ما، يبكون رحيله، وكيف أنه خسارة فادحة للإبداع، وبعضهم يطالب

بإعادة طباعة أعماله، وتوزيعها في المدارس للطلاب، وهكذا حدث أيضًا لأدباء آخرين غير الطيب. على أن أغرب ما صادفني شخصيًّا بعد وفاة الطيب، هو أن أحدهم كتب في صحيفة مصرية، مستخدمًا اسمًا مستعارًا: إنه التقى بي في أحد الأيام، وأهديته نسخة من روايتي الملحمية «مهر الصياح»، طالبًا منه أن يدلي برأي نقدي فيها، وفوجيء أثناء قراءتها بأنني نسخت رواية الطيب: موسم الهجرة إلى الشمال، وشوهتها بروايتي مهر الصياح.

بديهي أن هذا الناقد المزعوم لم يلتق بي يومًا، لأن النقاد الحقيقيين يتركون أسماءهم حرة كما هي ولا يغطونها بنقاب بنقاب من أي نوع، وبديهي أيضا أنه سمع بوفاة الطيب صالح، أحد أهم كتاب الرواية العربية، وأراد أن يدلي بدلوه، ومنطقي جدًّا أنه لم يقرأ موسم الهجرة إلى الشمال التي تتحدث عن علاقة الشرق بالغرب، وسفر مصطفى سعيد إلى إنجلترا، وعودته لقرية ود حامد، وما تلى ذلك من أحداث، ولم يقرأ مهر الصياح التي تدور أحداثها في القرن السابع عشر، في منطقة دارفور، وبنيت على مجلس الكوراك أو مجلس الصياح الذي كان وسيلة اتصال الرعية بسلاطينها، وكيف أن ابن صانع طبول فقير حلم بأنه أصبح نائبًا للسلطان، وماذا حدث بعد ذلك.

إذًا العالم تطور كثيرًا، وأصبح بالإمكان أن يكتب كل من يملك حتى لو يرقات كتابة ميتة، ما يريده بلا رقابة، ولا مشكلة كبرى، وأن يجد معجبي كتابته، بسهولة شديدة أيضًا،

فقط هنا تأتي السلبيات التي ما كانت ستنمو وتستمر، لو أن الكلام يحدث في الواقع وأمام الناس. قطعًا شارع الإنترنت يتستر على التفاهات التي ربما يفضحها شارع ضيق في حارة واقعية، ولكي نقول بأننا استفدنا فعلًا من التقنية، علينا أن نطور الشوارع الافتراضية، فلا يختبئ فيها الأذى.

من تحدِّيات الكتابة

كثيرًا ما يُوجَّه إليَّ سؤالٌ عن عدم استخدامي، حتى الآن، في أعمالي الإبداعية لأماكن عشت فيها طويلًا، مثل مصر وقطر، وتمسُّكي باستخدام مفردات بيئتي الأصلية التي خرجت منها منذ فترة طويلة، ولا أحتك بها إلا فترة طويلة كل عام! السؤال جميل بالفعل، ويحتاج لكلام كثير حتى تتم الإجابة الجيدة عنه، فأولًا ليست كتابة الكاتب الإبداعية تحديدًا، مشروطة بمكان معين، حتى لو عشق ذلك المكان وذاب في معطياته وذابت تلك المعطيات فيه، كما حدث لي باندماجي في مجتمع دولة قطر، ومعرفتي التي بتُّ أعرفها عن البيئة الخليجية عمومًا، وإحساسي الدائم، أنني أستطيع أن أكتب عملًا مستوحى من تلك البيئة. كما أن وجود كثير من الشخصيات من حولي، وصلاحية عدد منها لتصبح شخوصًا روائية، يدعم ذلك الإحساس كثيرًا. أعتقد أنه رغم ما ذكرته، فإن الكتابة تمتلك جنونها الخاص، أي ذلك الجنون الذي يتوجَّه مباشرةً نحو مكان الخبرة الأولى، تلك البذرة، أو الرشفة التي يرتشفها الكاتب حين يولَد، ويظل يرشف بعدها، إلى أن يكبر، وحين يأتي للكتابة، في يوم ما، يجدها تستهدف بداية وجوده، وحين ينفلت من تلك البيئة الأولى لسبب أو لآخر، فغالبًا ما

يطل يكتبها، وهذه المرة مدفوعًا بوقود الحنين، الذي يرافق دائمًا غربة المسافر. في وجود دفقات الحنين، تختلف المعطيات كثيرًا، تختفي القسوة والجلافة، وملامح خشنة كثيرة من طباع المجتمع الأصلي وتحل محلها اللغة الناعمة، وفي أثناء تأجُّج نار الحنين، يصبح المنبع بحيرةً من عسل، يتمنى المهاجر لو حصل منها على القليل. لكن مع تطور الكتابة، وإمكانية أن تلغي المكان المسمّى تمامًا، ويصبح ثمة مكان افتراضي، تدور فيه الأحداث ويمكن أن ينطبق على أي بيئة أخرى، تصبح الإيحاءات متعددة، أي أن ثمة شخصيات من مصر والأردن وقطر، يمكن أن تلعب دورًا جيدًا ومميزًا، في نصٍّ سوداني، نجاحات كثيرة حدثت في الدوحة، يمكن أن تزيّن نصًّا عن الخرطوم، وشوارع بعينها مستلفة من أي مكان بالعالم، بضجيجها، وحركة مرورها، وتكدُّس مركباتها، يمكن أن تربط بين عدة أمكنة في نصٍّ لا يمتُّ لأماكن وجودها بصلة... وهكذا. كل مكان يملك خصوصيته، هذا صحيح، ولكن بالمقابل، كل مكان يملك مفردات عامة، يمكن أن يُعيرها لمكان آخر، والذي يقرأ نصوصًا مكتوبة بهذه الخبرة، لن يستطيع إحالتها لبلد معين. فقط إحالتها لبلد الإبداع الذي هو بلد افتراضي، يعيش داخله كل مبدع حقيقي. بناءً على ما ذكرته، فلديَّ شخصيات عديدة، استلفتها من مصر بملامحها وسلوكها، ومشاعرها المتباينة، وضعتها في نصوص لي، وشخصيات أخرى صادفتها في الدوحة، ودخلت نصوصًا مكتوبة عن الخرطوم، أيضا كان للأسماء دور كبير

في إنجاح النصوص، واكتشفت أنه برغم وجود أسماء خاصة ببلاد معينة، ولا توجد خارجها في الغالب، إلا أن استخدامها في بيئات مختلفة، يزيدها تميزًا، ويجعلها تركز في ذهن القارئ أكثر، فلا بأس من وجود هندي اسمه: كايتا فلابيل عسكر في رواية عن أرض السودان، ولا بأس أن يدخل البنغالي أبو البشر، رواية تدور أحداثها بالكامل في بلدة طوكر، في أقصى شرق السودان... هكذا. ما ذكرته عن المكان وشروطه، ينطبق على الكتابة العفوية، الكتابة التي تأتي غصبًا دون تخطيط، وتفكير في احتمالات كسب آخر، بعيدًا عن محبَّة القراء التي نعتبرها مكسبًا كبيرًا ونحتاجها في أي وقت، لكن توجد ما أسمّيه بالكتابة القصدية، أي تلك التي يخططها كاتب ما، بورقة وقلم، ويضع جميع احتمالاتها، وطريقة الصياغة وحركة الشخوص، قبل أن يبدأ بكتابة أي حرف، وهذا النوع من الكتابة دائمًا ما أحس بجفاء تجاهه، ولا أدري لِمَ لا يمنحني أي فرصة للتفاعل معه، حتى لو كان كاتبه، من الذين أحب كتابتهم. لقد كتبت مرة مقالًا أسميته: «جسر طالبان»، وتحدثت فيه عن تلك الأعمال التي كتبها روائيون عرب وغربيون عن أفغانستان، عقب الحرب الأمريكية على كابول، وسقوط جماعة الطالبان، وأقحموا فيها أحداثًا غير ممتعة، أرادوا بها فقط أن يكتبوا تشدد طالبان، وتخلفها، وعداءها للمرأة، واستخدامها للدين العظيم كأداة أساءت له، وأعتقد كما أذكر أنني تحدثت، كنموذج، عن رواية «سنونوات كابول»، للجزائري: ياسمينة خضرا، التي قرأتها تلك الأيام، وأحسست تجاهها بذلك

الجفاء الغريب، ولهذا الكاتب رواية أيضًا عن بغداد، تحمل سمات الكتابة القصدية. الكتابة القصدية، تنطبق أيضًا على معظم كتابات ما بعد الربيع العربي، تلك الكتابات التي ظهرت في العامين الأخيرين، وكانت كما بدت لي تعجُّلًا من كتَّاب أرادوا أن لا تضيع حرارة الثورات من دون أن يؤرخوا لأنفسهم بكتابة عنها. بالطبع لا ينطبق الأمر على جميع من كتبوا، فدائمًا يوجد من يُجيد الكتابة عن أي حدث كبيرًا كان أو صغيرًا، وأظن أن الكتابة عن ثورات الربيع العربي، ستبدو أكثر جمالًا، وإمتاعًا لقارئها، لو أنها تُركت قليلًا حتى تستقر البلاد التي ثارت، وللأسف معظمها مضطرب حتى الآن، وابتدأ في التفكك، ولا يوحي بكتابة تُحيي أو تمجِّد الربيع العربي. إذًا ما كان يقرصنه مكان الخبرة الأولى بجر الكاتب إليه، حتى لو هاجر بعيدًا، أصبح بالإمكان أن يكتب الآن، في روايات لا ترسم مكانًا جغرافيًّا محددًا بقدر رسمها لمكان إبداعي عام، يعيش بداخله الكاتب الجيد، ويستخدم معطياته في أي زمان، وانطلاقًا من أي مكان.

تجميع المفردات في الرواية

أتيح لي أن أشارك هذا العام في معرض الشارقة للكتاب 2014، بجانب عدد من الزملاء الكتّاب، في ندوة كان عنوانها: «الرواية ومفردات الحياة اليومية»، وكان اختيارًا عظيمًا حين شارك معنا الروائي البريطاني من أصل سيرلانكي «روميش غودتسكرا»، ليبيِّن لنا هو الآخر، ما هي تلك المفردات التي يمكن أن تكون رواية، في بيئة مختلفة تمامًا عن بيئاتنا، وحقيقةً، ورغم اختلاف البلدان العربية في كثير من المفردات الخاصة بكل بلد، إلا أن الصورة العامة تبدو واحدة. والذي يكتب رواية في أي بلد عربي، سيجد من يفهمها ويتفاعل معها في بلد شقيق آخر. ما اتفق عليه المتحدثون في تلك الأمسية، يبدو قانونًا عرفيًا تخضع له كتابة الرواية، من دون أن يسنَّه أحد، فبالإضافة لمفردات مثل «الليل والنهار، والزمن والشوارع» وكثير من الهياكل التي ترسم أماكن الحكي، فلا بُد من دخول تجربة خاصة بالكاتب أو بيته أو شارعه في النص الذي يكتبه، خاصةً في نصوص البدايات، حيث تطغى لحظات انفراد المبتدئ بنفسه على لحظات اختلاطه بالمجتمع المحيط، فتنتج تلك النصوص المستوحاة من الذات، ولذلك لن ينكر أو لن يستطيع أن ينكر كاتب في بداياته، أن قصة الحب

التي دارت في الرواية، وضمت بطله مع واحدة من الفتيات بالجوار، هي قصته الحقيقية، أو فيها شيء كثير من قصته الحقيقية، ولن يكون الذي كانت بطلة رواية لكاتبة ما، تخصه بالنظرات الهائمة، وتترقب ظهوره في الشارع كي تراه، وربما تكتب له رسالة، تلقيها في طريق عبوره، سوى واحد من فتيان الجوار، عرفته الكاتبة ذات يوم، وكما قلت إن تلك الفرضيات ليست قوانين، يتبعها الجميع، لكنها بالفعل تشكل لحم معظم روايات البدايات، التي كتبناها كلنا، وكان يمكن أن تصنع عديدًا من المشاكل، لو كان المجتمع متقدمًا، ويتابع الكاتب بدقة، ليرى ماذا يكتب. أذكر في روايتي الأولى المسماة: «كرمكول والحصانة القروية»، وكانت قطعة شعرية كتبتها بنفَس واحد، أيام كنت طالبًا نهاية الثمانينيات، من القرن الماضي، أن كتبت أشخاصًا من الجيران، نشأتُ بينهم، ودخلتُ بيوتهم وأنا طفل، كتبتُ بعضهم بهيئته التي انطبعت في ذهني، وبعضهم بهيئات مخترعة، ربما اختلفت عن الحقيقة، لكن المحصلة أنهم كانوا وقود كتابتي ومصدر إيحائي الأول، وصادف أن التقاني أحد الشباب منذ عدة أعوام، وكان قد قرأ «كرمكول»، سألني مباشرة: هل كان ذلك الرجل الضخم، الذي أحب المدرسة نعمات، هو عمي؟ لقد كان يشبهه كثيرًا. في الواقع لا أذكر «كرمكول» الآن ولا أذكر ماذا كتبت فيها بالضبط، وربما كان ذلك الرجل عمه بالفعل، لأنني كما قلت، استخدمت في تلك الرواية، وروايتين أخريين جاءتا بعدها، وقودًا اعتبرتُه غنيًّا، وكان متوفرًا في الذهن بكثافة، هو وقود

الأهـل، وأصدقـاء العائلـة، وسـكان الأحيـاء والمـدن الـتي توزعتُ فيهـا طفـلًا، ومراهقًـا، وشـابًّا، بصُحبـة أهـلي.

الزميلـة فاطمـة المزروعـي مـن الإمـارات، وهـي كاتبـة شـابة، مـا تـزال تملـك عالمًـا ثريًّـا تسـتلّ منـه نصًّـا كل فـترة، تحدثـتْ عـن شيء مختلـف جديـر بالتوقـف عنـده، وهـو أن الكاتبـة المـرأة رغـم أن تصنيـف الكتابـة بوصفهـا نوعـين، كتابـة الرجـل وكتابـة المـرأة، لـم يعـد يُسـتخدم الآن، ولا يـرضي أحـدًا، إلا أنهـا كامـرأة، تسـتطيع القـول إنهـا تملـك مفـردات فسـيولوجية وحياتيـة ومجتمعيـة، لا يملكهـا الرجـل، لذلـك هـي تسـتخدم مـا تسـمعه في جلسـات النسـاء، تسـتخدم الحنـاء والمكيـاج الكتـابي، وتسـتخدم أدق الأدوات النسـائية في كتابتهـا، وتعتـبر ذلـك مـن هبـات البيئـة للكاتبـة المـرأة. لعـلي أتفـق مـع فاطمـة، عـلى أن الكاتـب الرجـل ومهمـا ألَـمَّ بمفـردات معينـة للنسـاء، ومهمـا كتـب عـن مشـاعرهن، لـن يسـتطيع مثـلًا كتابـة دمـوع هطلـت لامـرأة، في لحظـة فقـد أو فـراق، كمـا يمكـن أن تكتبهـا المـرأة نفسـها، حـتى أولئـك الذيـن درسـوا العواطـف النسـائية جيـدًا ووظفوهـا، لا أعتقـد أن كتابتهـم، سـتبدو حقيقيـة، ككتابـة المـرأة، وفي ذهـني روايـة: «الولـه الـتركي»، للإسـباني العظيـم أنطونيـو غـالا، الـتي جعـل بطلتهـا امـرأة إسـبانية، سـقطت في هـوى دليـل سـياحي تـركي أثنـاء زيـارة لتركيـا بصحبـة زوجهـا، وتحولـت إلى شـبه جاريـة بسـبب ذلـك العشـق غريـب الأطـوار. لقـد كتـب غـالا مشـاعر بطلتـه «دسي» بمهـارة واقتـدار، رسـم تصرفاتهـا، وتقلبـات مزاجهـا، وحـتى مـا يطـرأ عليهـا مـن تغـير هرمـوني، في سـاعة علاقتهـا الحميمـة،

وحملها وإجهاضها، إلا أنني كنت أحس أن ثمة شيئًا ناقصًا في البطلة، وهذا النقص كانت سترسمه ريشة امرأة، لو أن «الوله التركي»، كُتبت بقلم نسائي. حتى استخدام المفردات، كان بعضها يبدو ذكوريًّا، مثل كلمة «امتلكني»، فالمرأة لا تستخدمها لتصف بها تأجج عاطفة رجلها كما أعتقد. لكن رغم ذلك تبدو «الوله التركي»، واحدة من العلامات المضيئة للرواية في أي زمان. الشيء الآخر الذي اتفق عليه المتحدثون في تلك الندوة، وكنت من مؤيديه بشدة، هو أن المفردات البيئية، حين يتم تجميعها لا ينبغي أن تُكتب عارية كما هي وحقيقية كما هي، ولكن ينبغي أن يتم تطويرها بالخيال، فتصبح أكثر قوةً وأكثر قربًا من صنعة الرواية، التي تأخذ من الواقع ومن الخيال في الوقت نفسه. نعم الرواية صنعة، وتزداد تلك الصنعة تعقيدًا في كل يوم، ومهما استسهل الناس كتابتها، وأصبحت أول ما يخطر على الإنسان بعد أن يكمل طفولته، هو أن يكتبها، تظل محصورةً على موهوبين، عرفوا الصنعة وأجادوها. روميش غوديسكرا، شاركنا تلك الآراء كلها، وذكر شيئًا عن بيئته التي يستوحي منها كتابته. لقد كانت ثمة مفردات عامة، يختص بها الإنسان في أي زمان ومكان. مفردات فسيولوجية، وحياتية، وأيضا مفردات أخرى خاصة، تتوفر في المجتمعات الآسيوية والمجتمعات الغربية التي نشأ فيها الكاتب. الكتابة تثري وتمنح المعرفة، ومثل تلك الملتقيات توحد الشعوب، بهذه الطريقة بعيدًا عن كل اختلاف بيئي واجتماعي.

رأي لمؤمن وآمنة

في أحد الأيام، سألني مؤمن، وهو طفل في الثامنة من عمره، وقدم إلى عيادتي مع والده، مريضًا بزكام عادي، سألني بعفوية شديدة هي بالتأكيد من خواص الطفولة: - هل كنت تكذب وأنت في مثل عمري؟

نفيت ذلك بشدة، وقلت للطفل وأنا أستغرب من سؤاله: لا.. أبدًا. وبدا والده مستاءً بشدة، وأراد معاقبته، لكن الطفل فاجأنا حين أضاف سؤالًا آخر:

- إذًا كيف استطعت كتابة كل هذه القصص؟ ومنذ عدة أيام جاءت آمنة بصحبة أحد أبنائها، وكانت جدة في نحو الثمانين، تمشي ببطء، وتتحدث بصعوبة، وتحمل تاريخًا عميقًا من أمراض وعرة ومتسلطة مثل ضغط الدم، ومرض السكر، وتصلب العروق، وأعرف أنها خضعت لجراحات متنوعة، عديدة في الماضي.. سألني ابنها: هل ما زلت تكتب تلك المقالات في الصحف؟ قلت: نعم. وفوجئت بوالدته تتحدث بصوت عال: حتى الطبيب يكذب؟ خسارة. إذًا نحن أمام رأيين متطرفين أحدهما من بداية العمر والآخر من نهايته، يسيئان الظن بالكتابة ويعتبرانها كذبًا، وكلا الرأيين لم ينبع من خبرة ولا تتّبع لما يُكتب، فرأي

الطفـل قطعًـا كونـه مـن اسـتماع مسـتمر لآراء الكبـار ممـن حولـه، حـين يصفـون بعـض الحكّائـين المبالغـين في تنشيط خيالهـم بالكذابـين، لكـن الطفـل ليـس عاديًـا بالتأكيـد ويملـك ذكاء يجعلـه يُخضـع الكتابـة الإبداعيـة، لمثـل تلـك الـشروط. أما السـيدة المسـنَّة فهـي لا تقـرأ ولا تكتـب، وبالتأكيـد لـم تسـمع بمـا يُعـرف بالروايـة أو القصـة، ولا مـاذا يكتـب ومـاذا لا يكتـب، وأزعـم أنهـا تسـمع فقـط عـن ذم الصحافـة باعتبارهـا وسـيلة شـائعة للكـذب، وبالتـالي كل مـن يكتـب فيهـا، فهـو كـذاب، والطبيـب لا ينبغـي أن يكتـب حـتى لا يكـذب. لقد تحدثـت كثيرًا مـن قبـل عـن شروط الكتابـة عمومًـا، وأرى أن هذيـن الرأيـين ليسـا ذمًّـا بالتأكيـد للإبـداع، ولكنهمـا يتسـقان تمامـا مـع شروط الكتابـة الجيـدة، أي تلـك الـتي تأخـذ شـيئًا يسـيرًا مـن الواقـع المعيـش، وتبـني عليـه، وتصنـع في النهايـة هيكلًا يملـك ملامـح الحيـاة الواقعيـة، وملامـح أخـرى ليسـت مـن الواقـع في شيء. الكـذب هـو الخيـال الذي يطـور بـذرة الواقـع، يلقِّحها، ويغرسـها في تربـة صالحـة للحكايـات، لتنمـو حكايـة قابلـة ليتذوقهـا كثير مـن النـاس، ليس بالـضرور ة أن يكون الخيال متطرفًا أو ملامسًـا للأسـطورة، أو سـحريًّا، فهـذه مدرسـة كتابيـة، وهنـاك مـدارس كتابيـة غيرهـا، وإنمـا الخيـال هنـا أن يوجـد حـتى في الروايـات والقصـص الواقعيـة، مسـار غـير موجـود في الواقـع، فقـط ابتـدأ منـه وتعـرج أو اسـتدار إلى جهـة مـا أثنـاء روايـة الحكايـة. كتابـات أمريـكا اللاتنيـة في معظمهـا، تحتفـي بالأسـاطير، وتفعّـل الخيـال بحيـث يطغـى عـلى الواقـع في كثـير مـن الأحيـان. كتابـات بعـض الكتـاب الإسـبان تفعـل ذلـك،

وعندنا في بلاد العرب من يتقدم بسلاح الخيال، مفضلًا إياه على الواقع كله. أما الروايات الواقعية التي ينبغي أن تحمل شيئًا من ملامح الخيال، فأعني بها تلك التي تكتب الحياة كما هي والمجتمع كما هو، فقط تضيف أحداثًا جديدة لأحداث وقعت بالفعل واتخذها الروائي سمادًا حكائيًا، تنمو بخصائصه بذور حكايته. وأعرف مثلًا كتابًا دخلوا السجن لأسباب مختلفة، فكتبوا السجن وأضافوا من عندهم، أحداثًا أخرى، هي منطقية في الحكي ولكن خيالية، لم تحدث قط، مع إمكانية أن تحدث فعلًا. ولطالما أعجبتني كتابة السجن عند كاتب مثل صنع الله إبراهيم، بالرغم من أنني لست من قراء الواقعية الصرفة، التي لا أحس فيها بالوهج الأسطوري للحكاية، وعلى الجانب الآخر، يبدو عبد الحكيم قاسم، نشطًا في الخيال السحري وهو يكتب أحداثًا يمكن لبعضها أن يحدث. لقد قرأت سيرة غبرييل غارسيا ماركيز بتأنٍّ، قرأتها كثيرًا، وهي كما نعرف سيرة حقيقية لحياة عاشها ماركيز، ليرويها لنا بحياد بعد ذلك. لكني لم أستطع أن أصدق قط أن الخادم الغائب عن الأسرة منذ زمن، عاد في أحد الأيام، مرددًا أنه عاد ليحضر عزاء الجد، بينما كان الجد ما يزال على قيد الحياة، ومات بعد ذلك بالفعل. هنا توجد سيرة فعلية بلا شك، لكن العقل الذي تعود على رش البهارات في طبخات الرواية، لن يخرج من طبخة متميزة كهذه السيرة، من دون أن يرش شيئًا. كنت إذًا سعيدًا برأي الطفل مؤمن، والعجوز آمنة، وليت

كتّاب الرواية الذين يكتبون حتى الآن عبارات مثل: عريض المنكبين، أو ذات عينين نجلاوين، أو عض على شفته من الغيظ، وكثيرًا من العبارات المستهلكة، الحقيقية في تشكلها، يكذبون قليلًا، لنرى إبداعًا مختلفًا.

الناشر والوكيل في الوطن العربي

من المسائل الشائكة المتعلقة بالثقافة عمومًا، في وطننا العربي، التي كنت دائمًا أتحسَّس كثيرًا قبل الخوض فيها، بوصفها مسألة بلا حل ممكن في الوقت الحالي، مسألة علاقة الناشر بالمؤلف.. وانعكاساتها على ما يُنتجه المؤلف من أعمال، وما يقدِّمه الناشر للمؤلف في هذا الصدد، وإن كان من الممكن أن يساعد ذلك في ازدهار الثقافة عمومًا أو وأدها! حقيقة في البداية نتحدث عن تعريف المؤلف، وإن كان سيُطابق التعريف الذي سيُلصقه معظم الناشرين به سرًّا، أم لا! فالمؤلف هو ذلك المبدع الذي يصنع كتابة معينة من الخيال، يروي قصصًا فيها أشياء حقيقية وغير حقيقية، وهو أيضًا ذلك الناقد الذي يصيغ الكتب للتعريف بالآداب، وهو الكاتب المسرحي، الذي يصيغ المسرح حروفًا تُترجم بعد ذلك إلى نصوص مُمثلة على المسرح، وهو الكاتب السياسي والعلمي ومؤلف الأغاني، وتعريفات كثيرة، تُطلق على كل مبدع في مجاله، سعى ليُعدَّ كتابًا معينًا، يدفع به إلى ناشر ما، من أجل إيصاله إلى الناس.

هذا جيد أكيد، فنحن إذًا إزاء شخص يعمل بجهد، يستهلك ساعات وأيامًا وشهورًا في العمل، وربما يدفع من ماله الخاص، إن كان يملك مالًا، لمن يقوم بتصحيح النص وتحريره، وفي النهاية يسعى لنشره في واحدة من دور النشر الكثيرة المتعددة، الموجودة في الوطن العربي، وما أكثرها في هذه الأيام، وأجد في كل يوم وفي كل معرض كتاب أزوره، دار نشر جديدة، تطبع بكفاءة الدور القديمة نفسها، وتسعى لاكتساب قراء بأي شكل من الأشكال. لكن ما هو التعريف الحقيقي للمؤلف، في وسط تلك الحمى الغريبة من النشر، هل هو مبدع فعلًا، وجدير باقتفاء آثاره أم مجرد سلعة إما رائجة، فيحتفى بها لمصلحة طرف واحد في التعاقد، هو الناشر، وإما كاسدة، فيحتفى بما تدفعه من تكلفة وربح من أجل أن يكون ثمة كتاب موجود في السوق والمعارض باسم مؤلف ما، سيبدو منتشيًا وهو يوقع النسخ لأصدقاء يلملمهم من أجل ذلك؟ ما ذكرته هو الحقيقة، فالمؤلف مهما علا شأنه ومهما اشتهر، وحصد من قراء، وباع آلاف النسخ، فليس له أي شيء، ليس له حتى ذرات من الريح، الناشر يسعى له، ولكتبه، ينشره بطريقة جيدة، ويوزعه بطرق كثيرة، ولكن يظل أسيرًا لديه، لا يستطيع أن يتزحزح شبرًا إلا بإرادته، ولا يستطيع أن يستردَّ كتابه، مع كافة الحقوق في أي وقت، كما هو مفترض أن يحدث، عند انتهاء عقوده، ذلك لأن الناشر يمسك الخيط وطرفيه، والمؤلف لا يمسك أي شيء. هذا ما يختص بالمؤلف الكبير، ويأتي بعد ذلك المؤلف

الصغير الذي يظل يدفع مما يملك ولا يملك، من أجل أن ينشر كتابًا، على أمل أن تتعدَّل الحال ذات يوم، لكن الحال لا تتعدَّل أبدًا، ويظل كل شيء كما هو. قد يقول البعض، إن هناك دور نشر تدفع حقوق مؤلفيها بانتظام حسب عقود وقعوها. هذا صحيح لكن كم عدد تلك الدور المنضبطة التي تقدِّر مؤلِّفها، وتسعى لتعويضه عن ذلك الجهد الذي بذله، حتى يسلمها كتابًا. قد يقول آخرون، إن الترجمة إلى لغات أخرى، تعدُّ تعويضًا جيدًا للكاتب، لكن كم كاتبًا تتم ترجمته سنويًّا، وكم دار نشر غربية تهتم أصلًا بالعرب وما ينتجونه من فكر أو أدب.. وكل ما تحمله نشرات الأخبار عن العرب، ملوث بالدم؟ المحصّلة في هذا الاتجاه، أي اتجاه الترجمة، صفر بامتياز. وحتى الدور التي تهتم، فمعظمها دور نشر صغيرة، تقوم على الدعم من التبرع، وهي بالتالي أحق بالشفقة من المؤلف نفسه، ومغامرة بيع الأدب العربي مترجما كما ذكرت هنا قبل ذلك، هي أكثر مغامرة وعرة قد يخوضها ناشر أجنبي. أريد أن أطرح هنا مبدأ الوكيل الأدبي، أي الشخص الذي يرتبط بالمؤلفين من جهة، وفي الوقت نفسه يرتبط بدور النشر المختلفة في جميع أنحاء العالم، من أجل تسويق المؤلفين وضمان حقوقهم لدى جهات النشر، من الجهة الأخرى. إنها وظيفة مهمة بلا شك، وقد عرفها الغرب باكرًا، ربما بعد تعرُّفه إلى حِيَل النشر، هناك حين يكتب أحدهم كتابًا أدبيًّا أو غير أدبي، لا يبحث عن ناشر إطلاقًا، ولكن عن وكيل أدبي، ربما ربما يعجبه نصُّه، ويتبنَّى ما كتبه، وبالتالي،

يتبنى مسئولية إطلاقه قمرًا في سماء التأليف. نحن في الوطن العربي لا نعرف مسألة الوكيل هذه، ولا أظنها خطرت على بال أحد ما أن ينشئ وكالة أدبية، تهتم بحقوق المؤلفين لدى دور النشر العربية، وقد كان لديَّ منذ سنوات وكيلة أدبية إيطالية، تهتم بنشر مؤلفاتي بلغات أخرى، وأخبرتني عن رغبتها في تبني نشر الكتب عربيًّا، بحيث تتعاقد هي بدلًا عني لدى دور النشر العربية، لكنني حذَّرتها بأنه لا وجود لمهنتها في خريطة أذهان ناشرينا العرب. لا أعتقد أن اكتساب الوسائل الكفيلة بترقية الثقافة، يُعد اعتداء على أحد، ولا وجود وكيل أدبي خاص بالنشر العربي، بلا معنى، فطالما أن الأدب مرادف للفن، حيث يُقال الآداب والفنون، أو يُقال إن الأديب فنان، فليحذو الأديب حذو الفنان، فكثير من الفنانين، وأعني مبدعي الفنون التشكيلية، لهم وكلاء يوزعون أعمالهم، أما المطرب، وهو فنان من نوع آخر، أكثر دهاء، وتمكنًا من المؤلف، فقد دخلت مسألة الوكيل إلى مهنته منذ عهد بعيد. المبدأ الخاص بوكيل للمؤلف سيتعثر أول الأمر في عقبات كثيرة، لكنه في النهاية سينجح، أسوةً بأي عمل آخر، بدأ غريبًا وغامضًا واتضحت صورته ومعها أهميته بعد ذلك..

القراءة طقوس

يُعد كتاب «تاريخ القراءة»، الذي كتبه القارئ المشهور: آلبرتو مانغويل، وأصدرته دار الساقي مترجمًا، أحد أهم الكتب التي ينبغي لكل باحث عن السبب في متعة القراءة، وتفوقها على كثير من المتع الأخرى، حتى عهد قريب، الاطلاع عليه، ذلك أن الكتاب كان عبارة عن جهد كبير، قضى فيه الكاتب سنوات طويلة، وأنجزه ليمنحنا أولًا شهادة معرفية عن القراءة، وثانيًا ليمتعنا بقراءة الكتاب.

الكتاب يتعرَّض تقريبًا لكل الحقب التاريخية، منذ أن عرف الناس كيف يقرأون على نطاق ضيق، وحتى لحظة اكتشاف الطباعة منذ قرنين بواسطة نوتنبيرج، وبداية انتشار المعرفة على نطاق أوسع حين انزاح عبء النسخ اليدوي للكتب وأصبحت تُطبع برصِّ الحروف والحبر، وتُجلَّد وتُحمَل إلى بعيد.

لكن أمتع ما في الكتاب، تلك الطقوس التي كانت تلازم القراءة، وآلية الاستماع للنص المقروء، ذلك أن القراءة لم تكن مفردة في بداية تعرُّف الناس إليها، بمعنى أن ينكفئ أحدهم على نص في عزلة تامة، ويستمتع به، أو يستخلص منه المعرفة، ولكن تجري في مجموعات، تجلس للاستماع

بينما هناك معلم، وغالبًا هو أحد القساوسة، يقوم بفعل القراءة، ونعرف أن التعليم كان قديمًا من وظائف الكنيسة، والمدارس التي تنشأ، يقوم برعايتها قساوسة، يهتمون أولًا بتدريس النصوص المقدسة، ثم العلوم الأخرى بعد فلترتها، بحيث لا تقترب أو تعارض الدين المسيحي، ويقول المؤلف أن هذا الطقس كان يُحدِث نشوة كبرى لدى المستمعين تقترب من الطرب، وشخصيًّا أظنها نشوة الاكتشاف التي يُحدِثها فعل الإلمام بمعلومة معرفية جديدة، بعكس ما يحدث معنا الآن في هذا العصر، حيث لا نشوة، ولا طرب لأي اكتشاف، وباتت الدنيا كلها مكتشفة، يمكننا الخوض في تفاصيلها ببرود شديد.

أيضًا تعرض الكتاب لطرق ممارسة القراءة، والأدوات المساعدة لكي تتم القراءة بمزاج جيد. هناك مقاعد وطاولات خاصة، وجلسات متعددة يتخذها المرء أثناء قراءته، هناك من يقرأ مستلقيًا، وهناك من يقرأ ماشيًا أو راكضًا، وحقيقة ذكرني ذلك بطقوس الكتابة نفسها، وهي لا تختلف كثيرًا، حيث لدى كل كاتب، طقس معين، ووضع معين يريحه أثناء الكتابة، فقط أصبح تعدد الطقوس صعبًا كثيرًا في السنوات الأخيرة، لأن استخدام جهاز الكومبيوتر، وحتمية الجلوس مقيدًا إلى مقعد أثناء الكتابة، قلل من تعدد الوضعيات.

أعتقد أن القراءة الجماعية، برغم تقلُّصها كثيرًا، وجنوح القراء إلى العزلة والانفراد بكتاب، هي الأفيد للباحثين عن

المعلومـة، في الكتـب العلميـة، حيـث يمكـن أن يـدور نقـاش مهـم أثنـاء فعـل القـراءة، وبالتـالي فائـدة كـبرى لـكل مـن يستمع أو يناقـش، بعكـس القـراءة الأدبيـة، فهـي الـتي يصلـح فيهـا الانفـراد بالكتـب ومحاولـة الاستمتاع بـكل مـا فيهـا، ذلـك أن الأدب في معظمـه وبرغـم القضايـا الكـبرى الـتي يحـاول معالجتهـا، هـو كتابـة مسـلية، وسلسـة، ويمكـن أن يُخـرج القـارئ حـين ينفـرد بكتـاب ممتـع لفـترة طويلـة، بقصـة حـب كبـيرة مـع ذلـك الكتـاب، والسـعي لكتـب أخـرى مشـابهة.

أذكـر في بدايـة تعرفنـا عـلى القـراءة الجماعيـة، وكنـا تلاميـذ صغـارًا، نقيـم في مسـاكن تابعـة للدولـة، في مدينـة بورتسـودان، أن تصـدى العـم «حمـزة»، لمهمـة القـراءة لنـا، وجعلنـا مسـتمعين منتشـين بمـا يقـرأه في كل مسـاء. كان العـم حمـزة كمـا أذكـر الآن، رجـلًا مسـنًّا، نحيـلًا، يملـك مـا يسـمى بالطبليـة، وهـي كشـك متحـرك مـن الخشـب، يبيـع فيـه أشـياء خفيفـة أمـام المستشـفى، ويقيـم في نفـس الوقـت عنـد أحـد جيراننـا، لـم نكـن نعـرف هويتـه، ولا صلتـه بجارنـا، لكنـه نجـح في تجميـع معظـم التلاميـذ الذيـن يقيمـون في ذلـك الحـي، أول كل مسـاء، والقـراءة لهـم مـن كتـب تحمـل الحكمـة والتسـلية. لقـد سـميت مـا كان يفعلـه حمـزة، بالبـث المسـائي، لقنـاة أرضيـة محـدودة لكنهـا واعيـة، وكانـت وسـيلة الترفيـه الوحيـدة لأمثالنـا في ذلـك الوقـت، والآن وبعـد سـنوات طويلـة، أعـود لأتذكـر تلـك المسـاءات، وأعتبرهـا مـن تـرف الزمـن الجميـل الـذي لـم يتكـرر مـرة أخـرى.

أعتقد وبما استخلصته من قراءتي لكتاب مانغويل، أن هناك جانبًا نفسيًّا كبيرًا في فعل القراءة، ربما يعتبره القارئ، أمرًا عاديًّا، مثلًا: طريقة تنظيم المكتبة وطريقة فوضاها أيضًا، والانجذاب للكتب إن وضعت بطريقة ما، وتركها إن لم تكن في الوضع الذي يريده القارئ. هناك من يحب كاتبًا معينًا مثل أمادو و خورخي لويس بورخيس، ويعتبره نهر قراءة لا ينقطع، وإن أراد قراءة غيره، فهو يضع كتب الغير بجانب كتبه، حتى ينجذب إليها.

حين طبقت الكثير مما ذكره كتاب القراءة على سلوكي الشخصي تجاه الكتب، وجدت أشياء ولم أجد أشياء أخرى، فأنا من النوع الذي يقرأ أكثر من خمس كتب في وقت واحد، وتكون جميعها مفتوحة عند صفحة القراءة، أعود إليها كلها يوميًّا محاولًا إنهائها، ومن الغريب حقًّا إن الأفكار بداخل كل كتاب لم تكن تتداخل، وأستطيع تمييزها وتذكرها. هذا السلوك بلا شك موجود عند كثير من القراء، ولعله يعود إلى صعوبة إيجاد وقت للقراءة الهادئة المتزنة، أو لعلها اللهفة لمعرفة ما بداخل الكتب كلها في نفس الوقت.

إذًا القراءة طقوس، والقراءة تاريخ طويل من زمن أرسطو طاليس، ومن زمن أن كان العثور على كتاب، أشبه بالمستحيل، إلى الزمن الذي أصبحت فيه الكتب تزاحم السكان في بيوتهم.. أعود وأكرر دائمًا، بأننا لم ننته من زمن القراءة بعد، ولن ننتهي منه بكل تأكيد، لأن التكنولوجيا

الحديثة، ما كان لها أن تخرج إلى الوجود، وتطبق لولا أن هناك من اكتسب المعرفة من قراءة الكتب، وطورها بعد ذلك.

كتاب آلبرتو مانغويل، كما قلت يمنحنا معرفة كبيرة، ومتعة كبيرة، لأنه صيغ بأسلوب أدبي بعيد تمامًا عن الأسلوب التوثيقي المعقد.

إيحاء الأمكنة

وأنا أقلّب ذهني، محاولًا أن أتذكر قراءاتي في الأدب الأجنبي والعربي، وما علق منها في ذاكرتي، كما أفعل من حين لآخر، كتمرين للذاكرة، عثرت على عشرات المدن، موجودة ليس بأسمائها فقط، ولكن بجميع عوالمها، داخل روايات كثيرة، سواء كانت عربية أو أجنبية. الكتّاب هنا، يمسكون بيد القارئ، يقودونه عبر شوارع واسعة أحيانًا، وضيقة في أحيان أخرى، يدخلونه مولات التسوق، والأحياء الشعبية والراقية، وبؤر الضجة وجذب السياح، وحتى المواخير والأندية الليلية بكل مواصفاتها، في سياحة أشبه بالسياحة الحقيقية التي يقوم بها أحد داخل مدينة ما. هذه المدن المذكورة، بعضها يتكرر في عدة روايات، بينما مدن أخرى لا ترِد أسماؤها، ولا مرة، رغم ما فيها من ضجيج وصخب، واحتمال أن تولد داخلها القصص الغريبة، وتنمو باستمرار. هذا لا يعني بالتأكيد خصوبة مدن معينة، مقابل جفاف أو عقم مدن أخرى، فقط بعض الأماكن تحتاج لوقت طويل من استيعاب تاريخها وحاضرها، وحِيَلها أيضًا، والاحتكاك بذاكرتها، حتى تساهم في عمل أدبي.. والمثير في الأمر أن الكتب الأدبية التي تذكر مدنًا بعينها، تمنح أيضًا قدرًا من التشويق، ليس للقارئ العادي وحده، وإنما لكتّاب

الرواية أيضًا، الذين قطعًا يودّون التعرف إليها عن قرب، ليكتشفوا إيحاءها وحدهم. لذلك حين قرأت روايات مثل: «ليلة لشبونة» للألماني أريك ماريا، و«الشتاء في لشبونة» للإسباني أنطونيو مونيوز مولينا، و«بيريرا يدعي» للإيطالي الراحل أنطونيو تابوكي، التي تدور أحداثها أيضًا داخل لشبونة في البرتغال، تملكني إحساس غريب بأنني ربما أضعت شيئًا مهمًّا، بعدم زيارتي لشبونة حتى الآن. ورغم أن تلك الأعمال لا تشبه بعضها في أي شيء، ولا يربط بينها سوى ما وهبته لشبونة من مكان وأجواء وطقوس، إلا أن القارئ يحس بالفعل أنها متشابهة، وقريبة من بعضها. «ليلة لشبونة» كانت عملًا عظيمًا عن الحرب العالمية الثانية، وما سطرته من مأساة للشعوب الأوروبية، تمامًا كما تفعل حروبنا في الوطن العربي الآن، من تشريد وقتل، وتدمير للبنى التنموية للدول، وطمس لهويات الشعوب المغلوبة، إنها رواية واضحة ولئيمة جدًّا في جعل العدو عدوًّا وكفى، والصديق في زمن الحرب عدوًّا، أشد ضراوةً من العدو نفسه. رواية إنسانية، ومُرَّة، وفيها شيء من السعادة أيضًا، لأن العمل الروائي، هو بالضرورة عمل اجتماعي، وأبطاله من البشر، حيث يحتمل حدوث الضحك والابتسام، مثلما يحتمل حدوث البكاء، وأجدني دائمًا وأنا أتحدث عن ثمار الحروب المرة، أُسرع نحو هذه الرواية، ولا أدري لماذا علقت هي في ذهني، وتوجد أعمال كثيرة كُتبت عن الحرب، مثل: «المريض الإنكليزي»، لكنها لم تبق في ذهني طويلًا. «ليلة لشبونة» عمل آخر، عمل يتحدث عن الحب والهجر،

والوصال، والهجر من جديد. هي قصة ستبدو عادية جدًّا، لو قُصَّت لنا بأدوات كلاسيكية، بعيدة عن الخيال وتقنية الغرابة التي وضعها الكاتب الإسباني، وواضح بالطبع أن لا جديد سيهز قارئًا متمكنًا أو حتى مبتدئًا، في قصة عازف موسيقيّ، أحب امرأةً متزوجةً وأحبّته، حين شاهدته يعزف في نادٍ ليلي، وشاهدها من بين أنفاس البوق، ودخان السجائر. الأحداث بعضها في سان سباستيان، وبعضها في لشبونة، وأيضًا هنا تأتي المدينة بعوالمها ومساحاتها المختلفة، لتعطي العمل صبغته. الجديد في قصة العازف: سانتياجو بيرالبو، والحبيبة لوكريشيا، زوجة بائع التحف التي عشقها، وعادت من برلين للقائه، بعد ثلاث سنوات من الرحيل، هو أن القارئ لا يعرف بالتحديد، في أي زمن من أزمنة القص، هو موجود ويتابع، سيجد القارئ نفسه في عدة أزمنة مختلفة في السطر نفسه، ويستمع لعدة رواة في الوقت نفسه، من دون أن يحس بأي خلل.. يا لتلك التقنية الصعبة وذلك الاقتدار الذي رصفه مولينو، حين حول قصة العشق الباردة المكررة في آلاف الكتب والألسنة، إلى تحفة مضيئة، بعد أن عرج الطريق، وأكثر من المطبات التي تغري بمتابعة السير، أكثر من الإعاقة عن التقدم.. رواية من لشبونة مهمة. ورواية عن إيحاء الأماكن. «بيريرا يدعي»، أكثر الروايات انتشارًا للإيطالي أنطونيو تابوكي، وهي الرواية الوحيدة التي أعتبرها عظيمة في نتاج ذلك الكاتب المتخصص في اللغة البرتغالية، وقضى زمنًا في لشبونة، وفهمها جيدًا. هنا تابوكي يكتب بطله كتابة سائح في المدينة،

وتبرز في روايته رائحة الأماكن ومعمار الحياة، أكثر من الروايتين السابقتين، ويبدو بيريرا، الصحافي الثقافي، الذي يعمل في مهنة غير جذابة، ويعاني من السّمنة وأمراض القلب والتعرُّق، متنقلًا من مكان إلى مكان، ومحتكًا بكائنات مجتمعية كثيرة، قبل أن ينتهي النص الخصب، بفراره من المدينة، بعد أن نشر فضائح السلطة التي قتلت معارضًا في بيته. إنها إذًا رواية مغموسة في حبر السياسة، فقط جاءت بفنيّات عالية، غطّت على الضرر البليغ الذي في العادة تُصاب به الأعمال التي تتحدث مباشرةً في السياسة.

على نهج لشبونة، نجد مدنًا أخرى يلسعها الحكي وتلسعه، نجد باريس ولندن ونيويورك، ونجد عند العرب، بيروت والقاهرة، وحتى مدينة جدة والخرطوم، نجدها أيضًا مكتوبة كاملة، وأحيانًا ناقصة، وكما قلت فإن الأدب في جزء من وظيفته، تأتي المعرفة، والمعرفة في روايات الأماكن هنا، أقرب للمعرفة السياحية، وأجزم أنني تعرفت على أماكن في مدن عربية وأوروبية، من خلال الروايات، وحين زرتها بعد ذلك، وجدتني أعرفها بالفعل.

شخصيًّا نادرًا ما أكتب اسم مدينة في أعمالي، ليس لعدم أهمية ذلك، فقط لأنني من مدرسة كتابية أخرى، يعتبر الغموض والأسطوري من دروسها الرئيسية.

بعيدا عن اللغة المحكية

أخيرًا، أرسلت لي كاتبة جديدة، رواية أولى لها، مكتوبة باللغة المحكية لبلدها بالكامل، أي أن السرد والحوار بين الشخوص المختلفين، كله بالأسلوب نفسه، يتبع تلك اللغة المحلية، بحيث يبدو صعبًا أن نعرف أين السرد وأين الحوار، في كثير من المقاطع. حقيقة اجتهدت كثيرًا حتى استطعت قراءة عدة أجزاء من تلك الرواية، وربما استغرقت وقتًا أطول من اللازم، لأنجو من فخ صفحة وأسقط في فخ صفحة أخرى، وبدا الأمر برمته صيدًا صعبًا، في مياه تبدو بعيدة، قد تهب الصيد في النهاية، ولكن بكثير من المشقة، والسخط والتبرم. الفكرة نظريًا تبدو مُسالمة للغاية وأخلاقية أيضًا. أن نكتب للناس في أي بلد عربي بلغتهم المحكية التي يهضمونها ويستخدمونها بشكل تلقائي، خارج صفوف الدراسة والخطب الرسمية. أكتب أنا بلغة بلدي وغيري من مصر والعراق والخليج، وكل الدول يكتبون بلغاتهم، بلا تكلُّف ولا مُطالعة للقواميس، وخوف وارتباك من شراك النحو والصرف، وقواعد اللغة العربية إجمالًا، فكما هو معروف تبدو اللغة العربية، رغم أنها لغة واحدة لجميع العرب، إلا أنها ليست لغة محكية واحدة، بل عشرات اللغات.

وما لم يكن العربي الغريب عن بلد عربي آخر، ذا دراية بلغة البلد التي يزورها، فقطعًا يضيع كما يضيع في أي بلد أجنبي، أو يلجأ لاستخدام لغة وسيطة، كما هو معروف. إذاً نظريًا، الفكرة جيدة، ولكن عمليًا، تبدو الفكرة سيئة للغاية، وقد تبدو في نظر الكثيرين لا فكرة على الإطلاق، فالقراءة في كثير من تعريفاتها، تحتفي بالمتعة، أي أن القارئ، يحس بالنشوة أثناء قراءته للعمل الأدبي، خاصة السردي منه، لأن الشعر في أصله نفحات جمالية لا ينبغي أن تكون غير ذلك، وحتى الشعر العامي، لأي بلد من البلاد العربية، فيه صور رائعة وفذة، وجماليات كثيرة، اكتسبها من التطور المستمر، وكنت في فترة ما أتابع الشعر النبطي، أو الشعبي لمنطقة الخليج، وعثرت على تلك الجماليات من ناحية الوصف والتشبيهات والاستعارات أيضًا. العمل السردي أخذ من الشعر بعض النواحي بلا شك، وازدهى بنواح أخرى خاصة به، وإذا ما تغاضينا عن خصائص السرد وأخرجناه في ثوب آخر ليس على قياسه، يظهر ذلك الخلل الذي أشرت إليه، وتلك الصعوبة الجمة التي تقف عائقًا بين العمل ومتلقيه. كذلك، العمل المكتوب باللغة المحكية لبلد ما، لا يحقق انتشارًا جيدًا، إذا ما طُرح للتداول في كل البلاد العربية، وقد يتذوقه أهل البلد التي كتب بلغتها فقط، وجزء بسيط من آخرين، يعرفون تلك اللغة، وبالتالي، نحرم ذلك العمل الذي بذلنا فيه مجهوداً كبيرًا من فرصة نشوة أو نجاح ما كان سيحققها إذا ما ترك عربيًا خالصًا. لقد توصلت بالتأكيد، إلى استحالة إيجاد تصالُح

بين السرد واللغات المحكية للشعوب المختلفة، وذلك للأسباب التي ذكرتها وأسباب أخرى، انغلاق اللغة الشعبية وعدم سماحها لأي مفردة غريبة أن تدخل في وسطها. بالنسبة للحوار بين شخصيات النص الروائي، فقد استُخدم كثيرًا وما يزال يُستخدَم إلى الآن في نصوص كثيرة تصدر. الروائي، يعيّن ساردًا للنص، يصف ويحمل الجماليات على كتفه، يوزعها، وحين يأتي دور الحوار بين شخوص العمل، تدخل اللغة المحكية، ويستمر تداولها حتى ينتهي الحوار ويستلم الراوي مهمته. كرأي شخصي، أنا أيضًا لم أتعاطف مع النصوص المكتوبة بهذه الطريقة، أو بالأصح قد أكون أحببت سردها، وتوعكت قراءتي حين دخلت متاهة الحوار المحلي ولم أفهم شيئًا. حدث لي ذلك مرات كثيرة، حين كنت أقرأ رواية عراقية ممتعة وسلسة، الراوي يصف المكان، يصف الحب، يصف الجسد، يتوغل في السحر والخرافة، وأشياء حُلميَّة، ثم فجأةً ينشأ حوار عراقي صرف، يستغرق صفحات طويلة، ويبدو أنه يكمل السرد، لكني لم أفهم، والنتيجة هي أنني خسرت رواية ممتعة، حين بدأت أقلِّبها وأكتشف أن معظمها حوار بتلك الطريقة. وما انطبق على تلك الرواية العراقية، ينطبق على روايات أخرى من السودان ولبنان والمغرب العربي، حيث اللغات المحكية هناك، لن تجامل مشرقيًّا مثلي، وتمنحه المعاني بسهولة. وبالنسبة للذين قرأوا رواية مثل عرس الزين، للطيب صالح مثلًا، قد يحتاجون لمن يفسر لهم تلك الحوارات التي داخل الرواية، والتي لحسن الحظ قصيرة، وغير مسيطرة، فقد كان

الطيب يحتفي بالسرد أكثر من الحوارات في معظم ما كتبه.
هناك شيء آخر، وهو التطور التكنولوجي الذي سمح لكل البلاد في الدنيا بأن تبث محطات فضائية، تتحدث بلغتها، وتروي تاريخها وموروثها وثقافتها الخاصة، وبالتالي زالت بعض العزلة التي كانت تسود الدنيا، ولا تسمح لأي مكان بأن يوجد خارج جغرافيته الخاصة.
السؤال، هل أدت تلك القنوات المحلية المفروضة على الفضاء مهمتها جيدًا، بحيث نعثر على قارئ في الصومال، يقرأ رواية تونسية مكتوبة باللهجة المحلية التونسية، ويضحك في مواضع الضحك ويبكي في مواضع البكاء ويسجل انطباعاته أيضًا؟ لا أعتقد ذلك، لسبب بسيط، هو خلو معظم تلك القنوات من وسائل الجذب التي تتحدث مع الآخر، وتجره من عينيه وعقله ليتابعها ويستوعبها. إنها في مجملها، قنوات خاصة لبلاد ما، تبث لأهل تلك البلاد أنفسهم ما يعرفونه ويهضمونه منذ أن وُلدوا ونشأوا. وشخصيًا لاحظت في حواراتي مع كثير من المغتربين عن بلادهم، كيف أنهم يتعلقون بتلفزيونات بلدانهم ويفضلونها على غيرها. لنكتب إذًا بالعربية الواسعة التي يقرأ عبدي، وفارح في الصومال، رغم وجود عشرات اللغات المحكية في بلاده، ويتقن هو ما تخص عشيرته، وفي الوقت نفسه يقرأها أمير في السودان، من دون أي تلعثم في الذهن أو كآبة تسيطر عليه، لعجزه عن الاستمرار في قراءة نص ممتع.

سنروي الحكايات لكن مَن يستمع!

تقول فتاة شابة من مدينة حلب في سوريا، كانت حتى عهد قريب قارئة جيدة للآداب، كما ورد في رسالتها الإلكترونية: إن لديها حكايات قاسية عن الحب والحرب، تود أن توصلها للناس حتى تبكيهم. ويقول فتاح، في رسالة أخرى من بقعة أخرى مشتعلة في الوطن العربي، إن ما يكتبه بشكل يومي، قد يفوق في تأثيره ما نكتبه نحن من الذين وُصموا كتّابًا، وانتشرت أعمالهم، لكنه لا يملك، مع الأسف، منبرًا محترمًا، ولا يتعدَّى قراؤه أولئك الذين يجدهم في مواقع التواصل، يضعون علامات الإعجاب بكل طيب خاطر، حتى لو لم يكن في النصوص ما يُعجب. ومن الموصل التي لم تعد الموصل، حيث البغدادي وخلافته، وحيث الدمع والدم، وما لا يمكن تخيله، يقول نسيم: إنه يملك حكاية أيضًا، حكاية من يملكون الحقيقة، ويملك غيرهم الترهات.. هذه الرسائل وعشرات غيرها، تصلني على البريد الإلكتروني باستمرار، وأصنفها دائمًا بأنها رسائل أحلام بالشُّهرة، والمجد الكتابي، كما يتخيل أصحابها، تُرمى في بحر الإنترنت

العريض، لربما تُصادف سبَّاحًا ينتشلها، ويسعى لتحقيق ما فيها. حقيقة ومنذ اختلطت الأمور في الدنيا والحكايات أكثر من الماء والهواء، البيئات بجميع أشكالها وألوانها، ومهما تنظمت أو اتسخت، تضخ الحكي.. الشوارع تحكي، البيوت بصمتها وضجيجها.. تحكي، والذين استطاعوا حتى الآن إيجاد طرق لإيصال حكيهم، أقل كثيرًا من الذين ينتظرون، ويرمون زجاجات الأحلام في بحر الإنترنت العريض. ولأن الحكي يحتاج دائمًا لمن يستمع إليه، سأطرح السؤال الذي أظنه مناسبًا، في هذه الظروف: مَن يستمع لكل هذا الحكي؟ من يقرأه إن صدر في كتب، ووزع في كل الأماكن، ومن يقلبه، حين يقلب جريدة فيها شيء منه؟ ومن أصلًا يستطيع أن ينجو بوقت هادئ ولطيف في تلك البيئات المشتعلة، والمشبعة برائحة الدم والرصاص، لينفرد بالحكي، ويتسامران معًا؟ وحدها الحكايات تتناسل هنا وهناك، وتستمر في التناسل لا محالة، لكن بلا متلقفين يتلقفونها، لأن المتلقفين الافتراضيين أيضًا يملكون الحكي ويحتاجون لمن يتلقفه. في الماضي كنا نطلق لقب الحكّاء على أشخاص قليلين، نادرًا ما نصادفهم، كانوا يملكون تجارب إما خاضوها بالفعل، وإما تخيلوا أنهم خاضوها بما يملكون من موهبة تفعيل الخيال، وصبر في الاستماع للراديو الذي يزودهم بأدوات الحكي اللازمة، يتصدرون المجالس في أي مكان يزورونه، ويحكون وسط استغراب مَن يستمع إليهم. وغالبًا ما يروون قصصًا لن تحدث لأمثالهم قط، لسبب بسيط،

وهو أنهم يتجاوزون حتى الخطوط الحمراء للخيال.
نعم الخيال له خطوط حمراء، ولن يقتنع أبدًا شخص يستمع لعامل يوميات فقير، يسكن حيًّا فقيرًا، في دولة فقيرة، يروي بأنه حل ذات يوم ضيفًا على قصر باكنغهام، وتعشى مع ملكة بريطانيا. أو عيّنه كورت فالدهايم، الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة، مندوبًا له، لحل النزاعات في الشرق الأوسط.
وقد كان لديَّ قريب، يعمل سائقًا في خطوط المواصلات العامة، ولم يخرج من البلاد إلا في آخر أيامه، بعد أن مرض وسافر يبحث عن علاج في الخارج. لكنه كان يحكي بجدية كبيرة، وملامح متهيجة، وفي أي مكان يجلس فيه، أنه كان الصديق الأقرب للممثل يوسف وهبي، ولطالما سهرا معًا في مقاهي حي الحسين والسيدة زينب، وعاكسا فتيات رشيقات، وسقطت فتاة إنكليزية، صادفاها ذات يوم، وقد قدمت سائحة لمصر، في حبه، تاركة الممثل الكبير لحسراته، ثم لتبدأ الخصومة، التي هي أثناء الحكي، مقدمة لأسطورة أخرى سيرويها الحكَّاء. أذكر أنني كنت صغيرًا حين ذكر الحكَّاء في بيتنا قصة عن جواز سفر لدولة خليجية عُرض عليه، ولم يقبل، وعن فراره سرًّا من إثيوبيا، لأن ابنة إمبراطورها أرادت الزواج منه، ولا يحبها. شاهدت الجالسين وفيهم أبي يبتسمون، ويؤيدونه في قرار فراره الحكيم، لكني سألته: وماذا لديك حتى تخطبك ابنة إمبراطور؟ لماذا تكذب وأنت أكبر من أبي؟ بالطبع، صُدِمَ الحكَّاء من جرأة الولد الصغير، وغادر مجلس الحكي غاضبًا، وتم

تعنيفي على تدخُّلي فيما لا يعنيني. نعم كان الحكي مطلوبًا في ذلك الزمان، ويجد مَن يدافعون عنه. الآن كل من في الأرض يحكي، من يتلقف الحكي إذًا؟

الأدب الممنوع

من الكتب الجيدة، التي تُرجمت في إطار مشروع كلمة الإماراتي لترجمة الأدب والفكر الأجنبيين، إلى اللغة العربية، ونُشر منذ عدة سنوات، كتاب: أدباء أمام المحاكم، الذي أعدَّه الألماني: يورغ، ويحكي عن عبر أربعة قرون، أو الأدب الذي قاد أصحابه لنهايات مؤسفة، بسبب ما احتواه من مواد اعتبرت في وقتها، مواد غير قابلة للتداول وسط الناس. ولأن الأدب في تلك الفترة المبكرة، وحتى عهد قريب في القرن العشرين، قبل ظهور التكنولوجيا الصادمة، ووسائل الترفيه الغزيرة المتعددة، كان شعبيًّا بدرجة كبيرة، فإن حظر الكتب كان في نظر من يحظرها، أمرًا شديد الأهمية، وحيويًّا بدرجة كبيرة، ولا يهم إن قامت الدنيا أو قعدت لإلغاء الحظر، لأنه لن يُلغى. كتاب المحاكم هذا احتوى على قصص كثيرة، ونماذج لأدباء تمرَّدت موادهم الإبداعية على مواد عصرهم المعتادة، وكانت أغلب تلك المحظورات، كما هي في كل عهد، إما سياسية تتعلق بأنظمة الحكم السائدة آنذاك، وما يمكن أن يزعجها، وإما دينية تختص بانتقاد الكنيسة المسيطرة، أو التحريض على التمرد على سيطرتها، ويأتي موضوع الحظر بسبب مواد الجنس في مرتبة أقل، إلا إن كان الأمر فوضويًّا وشرسًا في

تناولـه، كمـا حـدث في روايـة: يوسـفينة موتسـنباخر، وهـي رواية مشهورة، تحكي قصة فتاة ليل من فينا وهي تمارس مهنتهـا بـكل إخـلاص، بتفاصيـل لا يمكـن تركهـا تتحـاوم بـين النـاس وتدخـل البيـوت، وتشـد الأذهـان للانحـراف والمـرض، كمـا جـاء في حيثيـات منعهـا، وقـد نسـبت تلـك الروايـة للكاتـب الألمـاني فيلكـس سـالتن، المعـروف في ذلـك الوقـت، إلا أنـه لـم يعـترف صراحـةً بتأليفهـا، وتـرك الأمـر افتراضيًـا مـع عـدم ظهـور مؤلـف آخـر. وظلـت الروايـة تنجـح في الخفـاء، إلى هـذا اليـوم، ولدرجـة أن ورثـة سـالتن رفعـوا دعـاوى في المحاكـم الألمانيـة، مطالبـين دور النـشر المتعـددة، بدفـع حقوقهـم عـن الروايـة، ولـم تنجـح دعاواهـم بالطبـع، لأن لا شيء يثبـت كتابـة سـالتن لهـا، كمـا أن لا شيء ينفـي عـدم كتابتـه.
مسـألة منـع الكتـب وحظـر تداولهـا بـين النـاس، إذًا ليسـت اختراعًـا حديثًـا، ابتُكـر في هـذا الزمـان، وإنمـا أحـد الاختراعـات المهمـة في كل الأزمنـة، للحدّ مـن النشـاط المعـارض سـواء أكان ذلـك فكريًـا أو سياسـيًا، لأي جهـة تملـك صلاحيـة أن تتخـذ إجـراءات مـا، وتتخـذ إجـراءات أخـرى لحمايـة مـا أصدرتـه، والعالـم يكـرر نفسـه دائمًـا في كل زمـان، ومـا يكـون ممنوعًـا في وقـت مـا، يكـون مسـموحًا بـه في وقـت آخـر، والأدب نِتـاج بـشري يتحمَّـل تقلُّـب المـزاج والإيمـان بمحتـواه أو النفـور منـه، ولذلـك نجـد أعمـالًا كثـيرة، تـم حجبهـا في زمـن إصدارهـا، ومُنعـت مـن دخـول أماكـن كثـيرة، وأصبحـت بعـد ذلـك ليـس مسـموحًا بتداولهـا في تلـك الأماكـن فقـط، بـل تسـمَّى تُحفًـا وجواهـر، ومـن عيـون الأدب، مثـل روايـة «عوليـس» لجيمـس

جويس التي ما كان يُسمح بتداولها في أمريكا في بداية صدورها، بحجة أنها رواية منحرفة، وتوجد أعمال كثيرة مضت في هذا السياق. كانت المسيحية نفسها في زمن ما محظور انتشارها، وذلك لتهديدها القياصرة في اعتقاداتهم ووسائل حكمهم، ثم حين اعترف بها بعد ذلك، أصبح أهلها هم السلطة التي تطارد خصوم الأمس، بعد أن أصبحوا خارج السلطة، وهكذا. ودائمًا ما يُشهر ثمة سيف في وجه كل من يعارض لائحة سارية المفعول، ولها عشّاقها المسيطرون، إنه سلاح الخروج عن المألوف، أو محاولة تشويهه. لو طبقنا أمر الحظر ورفع الحظر عربيًّا لعثرنا على أعمال كثيرة، ما كان مسموحًا حتى الهمس بعناوينها قبل ما يُعرف بثورات الربيع العربي. هي أعمال اهتمت بالسياسة، وتحدثت عن سلطة الديكتاتوريات وما يمكن أن تفعله في الشعوب المغلوبة. هناك أعمال كتابية، إما شعرًا أو نثرًا، هناك أعمال فنية، إما أفلامًا أو دراما تلفزيونية، وربما أغنيات أيضًا تنبهت للظلم، وانتقدته ملحنًا، ولكن بعد زوال الديكتاتوريات، ظهرت تلك الأعمال معززة مكرمة، وشيدت لها المنابر وفتحت صفحات الثقافة لاحتوائها، وسميت: أعمالًا تخاطب الوجدان القومي. وبالرغم من أن معظم ثورات الربيع العربي انتهت بخيبات وانكسارات لا حصر لها، إلا أن مناخ تذوق الحرية، وتذوق حكاياتها الذي ما زال سائدًا هنا وهناك، يمكن أن يكون تعويضًا شبه ملائم عن تلك الخيبات والانكسارات، وشلالات الدم، حين ينتجها من حارب

أصلًا وثار لأجل العدالة، وإيقاف إنتاج الدم في بلاده. كتاب المنع: أدباء أمام المحاكم، يحتوي أيضًا على قصص حظر لم تكن المحظورات التقليدية، مسئولة عن إشعالها. هناك قصص تنتمي لما يسمَّى بإساءة الأدب، في حوارات المسرح أو الحوارات المصاحبة للسرد الروائي، وهي استخدام لغة غير محتشمة، حتى لو لم يكن الجنس محورًا، وهذا البند بالذات أراه ملائمًا لاستخدامه في تنقية شوائب الكتابة، حتى في عصرنا هذا، فقد دخلت إلى اللغة الأدبية المفترض أنها لغة راقية، تحاول أن تجد طريقًا إلى ذهن المتلقي، كثير من العبارات الشوارعية، المستخدمة في الأزقة والحانات، وبات كثير من القراء يستحون من اقتناء كتب بها شيء من تلك العبارات. وقد علَّق بعض كتَّاب المقالات الواردة في الكتاب على عدد من حوادث المنع، واصفين إياها بالتناقض، أي إن الكتاب يحظر لأي سبب كان، بينما هناك كتاب آخر، شبيه به أو توأم له في الفكرة والمعالجة، يُترك طليقًا، مما يبين تدخل المزاج والخصومات الشخصية في الأمر، وطبعًا هذا أمر ليس بمستبعد أبدًا في أي زمان ومكان. في النهاية، لقد كنت دائمًا من الداعين إلى تفعيل الرقيب الشخصي في الكتابة، أي أن يقوم كل كاتب بتنشيط ما يحمله من موروث تقليدي محتشم داخله، وما يكنُّه من حب لوطنه ومجتمعه، وينتج لنا كتبًا أشبه بالرغيف أو الحلوى، لا تدخلها البيوت وأنت تتلفت أو تخبئها في قاع كيس أو حقيبة. بمعنى أن الكتاب يصبح صديقًا للأسرة كلها، يقرأه من يقرأه، ولا يقرأه شخص واحد فقط.

كلنا ماركوبولو

أثناء وجودي في مدينة الظهران السعودية، ضيفًا على احتفالية القراءة التي أقامتها شركة أرامكو النفطية كتقليد سنوي مبهج يلفت الأنظار كثيرًا، طاردني ثلاثة أولاد متأنقين إلى حدٍّ ما، تبدو أعمارهم دون العاشرة. كانوا يلهثون وهم يخبون ورائي ويصيحون: يا عم، يا عم، إلى أن أدركوني. سألتهم عن سبب اهتمامهم الغريب بي، فأجاب أحدهم بكل بساطة: إنهم يحملون كاميرا رقمية جديدة من ماركة سامسونج، ويريدون التقاط الصور مع شخص مهم، ولأنهم لم يعثروا على مطرب أو لاعب كرة في ذلك المهرجان الخاص بالكتب، أرادوا أن يلتقطوا معي صورًا بديلة، ولا يعرفون عني شيئًا لكنهم شاهدوا صورتي في مُلصق موضوع في المكان. إجابة الصبي الصريحة هذه، تعكس وبإتقان شديد، ما يمكن أن يكون فرقًا غير قابل للتقريب بين أن تكون مطربًا أو لاعب كرة، وبين أن تكون كاتبًا، ليس في هذا الزمن فقط، ولكن في أي زمن سابق كان أو لاحق، وفي أي مكان في الدنيا، حتى في تلك الدول التي نتحدث عنها دائمًا باحترام، بوصفها منابت للقراءة، والثقافة والتحضر. المطرب لا ينتظر ثلاثين أو أربعين عامًا حتى يلمع، لكن إذا قضى تلك السنوات كمطرب، يكون قد حصل على أعلى

تقدير يمكن أن يحصل عليه أحد، لاعب الكرة ومن أول قذيفتين ناجحتين في مرمى خصم عنيد، يحتل مكانًا مرموقًا في أذهان كل مشاهدي الكرة، ويصبح جزءًا مهمًّا من نسيج أحلام المراهقين، أن يصبحوا مثله، والمراهقات أن يتعثرن بفتى أحلام يماثله، وحتى الكبار الذين يتشوقون إلى التقاط الصور معه، أينما وُجد. ولا بُد من الاعتراف أن الكتابة لا تمنح شيئًا على الإطلاق، لا ثراء ولا نجومية، ولكن تراكمات من العذابات المتصلة، تنتهي بصاحبها إما إلى الجنون أو الموت، من دون أن يكون حقق شيئًا يُذكر، وحتى أولئك العظماء الذين حققوا نجومية ما في الكتابة، لم يصبحوا من الشعبية بحيث يُفلتوا من شِباك الجهل بهم لدى بعض الناس.

حضرت مرة محاضرة للعظيم الطيب صالح، كانت كما أذكر عن أبي نواس الذي كان الطيب من المفتتنين بشعره، تحدث فيها ذلك اليوم بسخاء شديد، وبطريقته الممتعة في سرد الحكايات، وعرج على سير بعض مجايليه من الكتاب الأصيلين أمثال عبد الرحمن منيف، وإميل حبيبي، وحنا مينا. عندما فُتِحَ باب النقاش مع الكاتب بعد نهاية المحاضرة، وقف أحد الحاضرين وكان شابًّا في منتصف الثلاثينات، كما يبدو، ووجَّه حديثه للطيب: ما هو وجه المقارنة بينك وبين الكاتب الفلسطيني إميل حبيبي، وكلاكما يكتب بسلاسة فائقة؟! تصدَّى الطيب للسؤال بحُسن نية، وأجاب عليه بأن قال: نحن نختلف في أسلوب الكتابة وتناولنا للقضايا، وكلانا

يكتب عن بيئة هو يعرفها جيدًا، لكن إميل حبيبي، كان قد ذكر مرةً، إنه تأثر نوعًا ما بروايتي موسم الهجرة للشمال. قال الشاب: أنا لم أقرأ لك ولا لإميل حبيبي. في الحقيقة أنا لم أسمع بك أو به إلا الآن في هذه الخيمة، التي دخلت إليها مصادفةً.

مثل هذا الموقف الصادم، والبعيد تمامًا حتى عن الذوق العام، والموجَّه لكاتب كان فعلًا لامعًا مثل الطيب، يؤكد ما ذكرته من تمدُّد الفارق بين الإبداع المكتوب والإبداع المُمَارَس غناء أو كرة قدم. لن يجرؤ أحد على إسماع جملة كهذه لمغن مثل كاظم الساهر، حتى لو لم يسمع به فعلًا، بل حتى لن يجرؤ على مجرد التفكير أنه لا يعرف مغنيًا يعرفه الناس كلهم، ولاعب كرة في برشلونة وريال مدريد، يشتري المراهقون قمصانًا عليها صورته ورقمه بمئات الدولارات. ولن يحدث أبدًا أن يشتري أحد كتابًا عليه توقيع ماركيز أو همينجواي مثلًا، بمبلغ أعلى قليلًا من سعر بيع الكتاب العادي. لقد لاحظت في زيارة لبريطانيا بصُحبة أسرتي، أن الأبناء كانوا حريصين على زيارة ملعب تشيلسي، ومانشستر، ومشاهدة مباراة في كرة القدم، وشراء قمصان عليها صور لإبراهيموفتش، وميسّي طبعًا، وغيرهما من لاعبي الكرة، وكنا على مقربة من بيت شكسبير في استرادفورد، لكن لم تأتِ سيرته على لسان أحد، أن يضعه في برنامج زياراته، وشكسبير ليس مجرد كاتب، بل هو ثروة كبرى لبلاده.

لقد كان ماركيز لامعًا بشدة، بل كان في نظري ونظر الذين ما زالوا يعشقون الكتب، ألمع من لاعب الكرة بيليه، وبرغم ذلك، وحين توفي، قال لي أحد معارفي، ممن يعرفون أنني كاتب، ولا علاقة لهم بالكتابة: سمعت أن هناك كاتب من أمريكا اللاتينية، اسمه ماركوبولو مات اليوم، هل تعرفه؟! بالطبع لم أكن أعرف الكاتب ماركوبولو، لكني أعرف العظيم جابرييل غارسيا ماركيز الذي كتب: مئة عام من العزلة، إحدى عجائب الدنيا، للذين يعرفون التفرقة بين العجائب وغير العجائب. أخيرًا أقول: لقد وقفت مبتسمًا، وتركت الأطفال الصغار، يتبادلون التقاط الصور معي، على أمل أن يأتي يوم، يصبح فيه الكاتب من الذين يدخلون المتاجر والمطاعم بحراسة، خوفًا من أن يؤذيه المعجبون وهم يتسابقون لتحيته، وأن يموت باسمه المعروف، وليس باسم ماركوبولو الغامض!

أقرأ في الظهران

لقد أسعدني الحظ، أن أكون ضيفًا مشاركًا، في احتفالية «أقرأْ» الثقافية، التي تنظمها شركة أرامكو الكبرى، في الظهران، كل عام، وتستهدف تنمية موهبة القراءة لدى الشباب من الطلاب، بدءًا بالمرحلة المتوسطة، وانتهاءً بالجامعات. وكانت تلك الفعالية الفخمة المميزة، قد بدأ تطبيق فكرتها العام الماضي، في المنطقة الشرقية فقط، وحضرها القارئ الشهير، ألبرتو مانغويل، مؤلف كتب القراءة، وهي دروس جيدة، لكل من أراد أن يقرأ، ويتوغل في القراءة، وربما يكتب شيئًا فيما بعد، واتسعت المسابقة هذا العام، لتشمل كل مناطق المملكة. حقيقة، لقد سمعنا كثيرًا عن فعاليات الكتابة، أي تلك الورش التي تضم كتّابًا، وبعض الراغبين في أن يصبحوا كتّابًا في المستقبل، ليعملوا جميعًا تحت إدارة مشرفين من الكتّاب القدامى المحترفين، يمسكون بأيدي كتاباتهم، يقودونها نحو النضوج، أو على الأقل يضيفون بعض النقاط الضرورية للموهوبين من المشاركين. وشاركت شخصيًا في ورش كثيرة من هذا النوع، كان نتاجها جيدا بالفعل وثريًا. الذي يود تعلم الكتابة بمحض إرادته، قطعًا يتعلمها إن عثر على من يعلمه قوانينها. تلك الورش كما

قلت، سمعنا عنها وعملنا فيها، لكن فعاليات ورش للقراءة، هذا هو الجديد في الأمر، وقد فكرت كثيرًا قبل أن أذهب لحضور تلك الفعاليات، فكرت في الكيفية التي سأشاهد فيها تلك المسابقة، ولم أتوصل لحل.. هنا ليس ثمة مشاركة بقصة أو فصل من رواية، ولكن مشاركة بقراءة، ولا أدري كيف ستكون تلك القراءة، ولا كيفية تقييمها. كان الأمر جيدًا فعلًا، ومبشرًا وداعمًا لمعنويات الكتابة والكتَّاب، وكان هناك مئات من الطلاب قد شاركوا بقراءات لكتب كثيرة، وتلخيص ما قرأوه، وعرضه على لِجان متخصصة، للتصفيات المبدئية، وجاء الذين تم اختيارهم بعد تلك التصفيات، ليشاركوا في الفعاليات الختامية التي ستختار منهم، قارئ العام. وقد لفت نظري عدد الفتيات اللائي وصلن للمرحلة النهائية، وقوة تأثيرهن وهن يقرأن أمام الناس، ومنهن من قرأن كتبًا لم أكن أظن أنها ستُقرأ بواسطة طالبات في مراحلهن المتوسطة أو الثانوية، في هذا الزمن الذي نردد دائمًا، أنه ليس زمن قراءة، وإنما زمن انغماس في أجهزة التكنولوجيا، ولكن يأتي دائمًا مَن يذكّرنا بالزمن الجميل، أي زمن القراءة الأولى لجيلنا، حين لم يكن هناك شيء سوى القراءة، والشغف الكبير لاكتساب المعرفة، وقد وضَّحت ذلك في شهادتي للقراء، وكيف كنا نبلغ قمة النشوة حين نعثر على كتاب. فعاليات شركة أرامكو، في برنامج «أقرأ»، وبهذا الأسلوب المبهر الذي رأيته، تجعلني أولًا أشيد بما قدم، بذلك المجهود الكبير الذي بذله مسئولون في شركة نفط، أرادوا

تقديم يد لانتشال المعرفة الغريقة وإنعاشها. ولأن الشركة تستطيع الدعم، فقد كان البرنامج زاهيًا كما أرادوا له. وقد شارك في هذا البرنامج فنانون تشكيليون، ومصممون للجرافيك، وإعلاميون، وكتاب وشعراء، وعدد كبير من أهل الفنون والذوق العام، وحتى المشاهد العادي في صالة العروض، يستطيع وبشيء من التخيل البسيط أن يعتبر نفسه مشاركًا في إعداد ذلك الحدث الكبير. شيء آخر وجدته، وهو المشاركة بقراءة روايات صعبة، وكتب فلسفية، وبعضها ربما يبدو أكبر سنًّا من سنِّ من يقرأه، لكن فعلًا، موهبة القراءة لدى أولئك المشاركين، جعلت من تلك الكتب الصعبة، مادة سهلة، وهناك من ذكر أن الكتاب الذي قرأه، قد غير حياته تمامًا، وهذا قمة تلقي المعرفة، أن تغير شيئًا مِن حياة مَن تلقاها، و لا تكون مجرد معرفة دخلت الذهن وخرجت منه بلا ضجيج. وقد علمت أن تلك الكتب كانت من اختيار المشاركين أنفسهم، ولم تكن ثمة قيود قد فرضت لاختيارها، وتوجد بعض تلك الكتب وقد شارك بها أكثر من قارئ، مثل كتاب: رأيت رام الله، للشاعر مريد البرغوثي. أعتقد أيضًا، إن من العوامل التي ساهمت في نجاح تلك الفعالية، الحماس الكبير من الجمهور الذي حضرها، وقد كانت خيمة العروض ممتلئة تمامًا، ولعلها المرة الأولى التي أشاهد فيها فعالية ثقافية، تجر كل هذا الحشد، والمرة الأولى التي أقرأ فيها شهادة عن تجربتي، يستمع لها كل أولئك الناس. والآن ومن حقنا بعد نجاح برنامج «أقرأ» في موسمه

الأول والثاني، أن نتساءل: لماذا لا يكون هذا البرنامج، عامًا تحتضنه كل البلاد العربية، كلٌّ حسب إمكانياتها، وتقدم فيه الجوائز للقراء المميزين؟ لماذا لا نرصف للشباب طرقًا مُعبَّدة يسيرون فيها نحو القراءة، بدلًا من تلك الطرق التي رصفتها التكنولوجيا لما هو عكس القراءة؟ أنا متأكد، إن أي مبادرات مثل هذه، ستجد من يدعمها من الذين كانوا قراء فيما مضى، وتسلحوا وخاضوا الحياة وانتصروا في جوانب كثيرة منها. وحسب علمي توجد مجموعات متعددة لقراءة الكتب ومناقشتها في كل بلد، لكنها تظل في النهاية، مجموعات صغيرة، ويمكن اعتبارها أنوية لأحداث كبيرة مثل حدث: «أقرأ». الأمر في غاية البساطة، ولا أعتقد أن تطبيقه صعبًا. مجرد مبادرة من هنا وهناك وننتظم في برنامج قراءة، في كل بلد فيه شباب، يستحقون أن نشجعهم على القراءة، ونكرمهم، وهم يكرمون الكتب.

الإبداع والثرثرة

من المبررات التي ساقها الكاتب الأمريكي القديم فيليب روث، صاحب الروايات الكثيرة، والشهرة العريضة، والخمسين عامًا في سكة الكتابة، بغض النظر عن إن كنا نحب طريقته في الحكي، أم لا، في أسباب قراره اعتزال الكتابة أخيرًا، هو أنه تعب من الكتابة، ويريد أن يتفرغ للثرثرة. من المؤكد أن فيليب روث، اتخذ قرارًا صحيحًا، برغم أنه جاء متأخرًا بعض الشيء، فبعد أن يصل المرء إلى سن الثمانين، التي أنجز خلالها أكثر من ثلاثين عملًا روائيًا ناضجًا، تكاد تؤرخ للحياة والتحولات الاجتماعية، والاقتصادية والنفسية لبلاده، لا يتبقى لديه شيء ليقوله. لن يصبح الجار الغامض، الذي يخرج من بيته باكرًا بلباس البحر، مثلًا، ويعود إليه بعد منتصف الليل، يرتدي سترة غالية، لغزًا كتابيًا، ينبغي صناعة حكاية كبيرة من أجله. لن تصبح المرأة الجميلة، التي تعمل نادلة في بار رخيص بسبب الفقر، جديرة باختراع حكاية عن الهجرة غير الشرعية، ورضوخ المهاجرات الجميلات لظروف لا إنسانية أبدًا، ولن تكون حتى الذكريات الشخصية الحميمة، التي كانت تصنع فيما مضى، أطباقًا شهية من الحكايات، محلاة بعبقرية الكاتب، وبهاره الخاص، سوى مواد

استهلاكية، انتهت صلاحيتها، ولن يتذوقها أحد بعد الآن. ولأن الكتابة في النهاية، هي نتاج تفاعل كبير وواع، بين الكاتب ومجتمعه، الكاتب والسلطة التي تحكمه، الكاتب وظروفه الأسرية والحياتية، فلا شيء بعد الثمانين يصلح وسطًا ستجري فيه التفاعلات. كل الحبال بالضرورة ممتلئة بالغسيل الذي نشف، الأسرة المكونة من الأبناء، تعيش في عالمها الخاص، والسلطة مهما ازدادت قوتها، لا تلهم أحدًا ربما هو أكبر وأعمق منها. كنت كتبت من قبل عن ضرورة تقاعد الكتاب والشعراء، في سن معينة، هي تقريبًا السن التي يتقاعد فيها موظف الحكومة الرسمي، عن العطاء الوظيفي. قلت إن الكتابة بعادة الكتابة فقط، بعد تلك السن، لن تضيف كثيرًا لتاريخ المبدع وغالبًا ما تشوه ذلك التاريخ، بإنتاج نصوص إما غير لائقة فنيًا، وإما تمس المقدسات، بعد إحساس المبدع أنه تحرر من كل شيء. هذا الكلام بالطبع نظري، ويصعب تطبيقه عمليًا، لأن الوظيفة الرسمية، يمكن سحبها، وإرسال شاغلها إلى بيته بلا أي جدال، فكيف تُسحب الرواية أو القصة من كاتب؟ وكيف يُمنع شاعر من صياغة قصيدة تراقصت في مخيلته، حتى لو كانت تلك القصيدة بشعة، ولا تمت للحسن والجمال بصلة؟ كل ما في الموضوع أنني أعبر عن رأيي، وربما أكون أول من يطبق قانون حظر الكتابة على نفسي، إن بلغت سن التقاعد. أعود لموضوع العم فيليب روث وأقول، إن ثلاثين عملًا روائيًا، كانت كافية جدًّا لتحقيق الغرض الذي انطلقت

من أجله الكتابة في الأصل، وهو رقم أكثر من رائع، يتمنى الكثيرون تحقيق نصفه، قبل التقاعد. فقطعا توجد داخل هذا الرقم أعمال عظيمة، مثلما قد توجد أعمال أخرى، ليست جيدة، وهناك كتاب حققوا وجودًا ملحوظًا، واستولوا على تذوق القراء، بعدد أقل كثيرا من هذا، ومنهم التركي أورهان باموق، وحتى ماركيز العظيم، لم تبلغ عدد رواياته الثلاثين كما أذكر. الشق الآخر، في عملية اعتزال فيليب روث، هو موضوع التفرغ للثرثرة، هذه الكلمة وأعني الثرثرة، بدت لي غريبة فعلًا، فما عسى الذي كتب آلاف الصفحات، أن يفعل ليحصل على ثرثرة؟ وحقيقة فإن الأدب نفسه ضرب من ضروب الثرثرة، فقط ثرثرة ترتدي ملابس فنية، وتملك انضباطًا نوعيًّا ما، وحتى هاتين الصفتين، هناك من لا يهتم بهما من الكتاب، ويترك ثرثرته عارية كما هي. لقد نفى فيليب روث عن الأدب صفة الثرثرة حين قال بأنه سيعتزل ليثرثر، وما دام الأمر كذلك، فغالبًا لن تمر تلك الثرثرة مرورًا عابرًا، وربما تظهر في كتاب أو كتب جديدة، يعود بها الثمانيني مجددًا للكتابة. الذي يعتزل في رأيي أي نشاط إبداعي أو فني، ينبغي أن يعتزل تمامًا، فلا تصلح الرجل التي نصفها في الداخل ونصفها في الخارج، وأعرف أدباء وفنانين عديدين، خرجوا من باب أنشطتهم القديمة، ولم يعودوا إليها قط بعد ذلك، وأعرف آخرين، عادوا لأن أرجلهم كانت في المنتصف. وشيء مهم آخر، وهو ما أسميه: ديكتاتورية الإبداع، وهو سيطرة جيل معين على الشهرة، والجوائز، تاركًا الأجيال

الجديدة، تائهة بلا حظ. فما دامت الحياة متجددة، فالإبداع متجدد أيضًا، وينبغي أن يتذكر المبدع وقد بلغ حدًّا بعيدًا من النصر والنشوة بالنصر، أن ثمة من ينهزم يوميًا بالإحباط، وعدم العثور على حظ ينطلق به.

الليل والروايات

يبدو لي أن استخدام تعبير الليل، من أكثر الاستخدامات المطروقة، والمطلوبة في الكتابة عمومًا، فكثير من الأغنيات العاطفية، عربيًّا وغربيًّا، والقصائد الرومانسية، تحدثت عن الليل. كثير من الروايات العظيمة كتبته، إما كأرض خصبة، تجري على سطحها أحداث جسيمة ووعرة، وإما كغطاء لا بُد منه لتمرير مأساة كبرى أو فضيحة، أو رغبة ضالة. وفي كل تلك الحالات، نجد أن الليل كان ملائمًا بالفعل لتبدأ الكتابة وتنتهي عنده. ولأن الليل في رأيي، هو الزمان الأفضل لاستعارته في فنون المأساة كما ذكرت، فسيظل هكذا ملهمًا دائمًا، لكل جيل من الأجيال الكتابية. ولعل أبرز الأعمال الشاهقة في الآداب، والتي ما زال الكتاب والشعراء يستوحون منها، كتاب ألف ليلة وليلة، وهنا الليل ليس عنصرًا في الحكي، ولا عضوًا في فريق الفنتازيا الذي سنقرأ عنه طوال تلك الصفحات الكثيرة، العامرة بالأساطير، ولكنه المسرح الذي ستجري فيه الأحداث من دون أن أي تدخل منه. من الأعمال المعاصرة، التي أعتبرها جليلة فعلًا، وكان الليل ملهمًا كبيرًا لها، رواية ليلة لشبونة التي كتبها الألماني: إريك ماريا في منتصف القرن الماضي، مصورًا فيها رعب الحرب، وذلك الظلام الخانق التي كانت تعيشه أوروبا أيام تلك

الحقبـة المؤسـفة، في أربعينيـات القـرن المـاضي. الحقبـة الـتي لـن يتخيـل أحـد كيـف كانـت وهـو يـرى أوروبـا اليـوم، بـكل رفعتهـا، وتحضرهـا، واحترامهـا للإنسـان، وابتعادهـا بقـدر الإمـكان عـن كل مـا يمكـن أن يعـد مدمـرًا لـه. ولذلـك دائمًـا مـا أقـول إن الأعمـال الأدبيـة، خاصـة الـتي تكتـب في أزمنـة البلبلـة، والرعـب، والدمـار، هـي خـير مـا يمكـن أن يوثـق، هنـا لـن يكـون الكاتـب فظـا في تناولـه للأحـداث، مثـل الـرواة التاريخيـين، ولكنـه يهبنـا الحقائـق مصحوبـة بالمتعـة، ولذلـك، يكـون تناولـه الشـخصي، هـو الأكـثر انتشـارًا بـين النـاس. ليلـة لشـبونة، هـي ليلـة مـن الليـالي، الليلـة الـتي مـن المفـترض أن يسـافر في صباحهـا التـالي، رجـل مطـارد، برفقـة زوجتـه المريضـة، إلى أمريـكا بعـد أن حصـلا عـلى تذاكـر سـفر، وتأشـيرة دخـول لـلأرض الآمنـة، فـرارًا مـن الذبـح الألمـاني، الـذي يمكـن أن يطـال أي معـارض للهتلريـة، في زمـن الجسـتابو.. ليلـة فقـط وينتهـي كل شيء بالنسـبة لرجـل، غـيَّر هويتـه، وسـجن عـدة مـرات وعـذب، وقهـر، وفـر، واضطـر أن يقتـل ليعيـش، ووصـل إلى لشـبونة، آخـر مخـرج ليـس متسـعًا كثـيرًا، لكنـه مخـرج ينفتـح عـلى الأرض الجديـدة البعيـدة، لكـن الزوجـة الرقيقـة، شـقيقة أحـد جـنرالات البوليـس السـري الـتي ضحـت بالاسـتقرار مـن أجـل زوجهـا، وتبعتـه في رحلـة البحـث عـن حيـاة، ينهكهـا السرطـان أثنـاء رحـلات الفـرار، مـن مـكان إلى مـكان، وتمـوت في لشـبونة، وهكـذا ينتقـل الحلـم مـن رجـل محطـم، وزوجـة ميتـة، إلى شـاب متـشرد، وزوجـة صبيـة حيـة، سيسـافرا إلى العالـم الجديـد، بتذكـرتي الحلـم،

بشرط أن يستمع الشاب إلى قصة الحرب والحزن والخوف وفقدان الهوية، وكل ذلك يحدث في ليلة من ليالي لشبونة. الليلة الغطاء التي حملت الهواجس من ذهن رجل لآخر، التي غطت الحزن، والتي سهلت وصول الحلم المجهض، لينتعش مجددًا، بعد تلقيه بواسطة الحالم الجديد. إذًا حصلنا من تلك الليلة على قصة، لن نقرأ مثلها كثيرًا. ليل تشيلي، التي كتبها روبرتو بولانيو، وترجمها عبد السلام باشا، رواية أخرى من روايات الليل الملهمة، ولطالما كان بولانيو، الذي رحل مبكرًا في سن الخمسين، من الذين أضافوا للواقعية السحرية بهارًا خاصًا، وتبدو أعماله ممتعة فعلًا. هنا الليل ستار للشعر والسحر والعنف، والحياة الخشنة، والناعمة معًا. الليل الذي يحتاجه المجتمع الغاص بالعري، ليستتر، والمجتمع المحتشم أيضًا، ليتعرى، ولو لفترة قليلة. كانت شخصية البطل، القس، ملائمة لتستتر في ليل تشيلي، من كل ما فيها وما في الليل من تناقضات. وهكذا يجد القارئ نفسه مضطرًا ليسهر في ليل افتراضي، يتشبع به، من دون أن يبدو ثمة صباح في الأفق.

كثيرة أعمال الليل، وهناك رواية اسمها أعمال الليل والبلدة، للسوداني إبراهيم إسحق، واحدة من كتابات الواقعية السحرية، التي برع فيها إبراهيم، كلها تدور في قرية، وأيضًا هناك ستار الليل الذي لا بد منه ليظلل الحكاية..

وحيد الطويلة، الكاتب المصري المدهش، كتب روايته: باب الليل، كتابة راقية، فيها أسلوبه الذي لا يخلو من

فكاهة وظرف، من الأعمال الجيدة، العربية، والتي تتخذ الليل المعنوي ستارًا لتبرير الكآبة، والوحشة والوسواس، وضياع الهوية.

رواية قميص الليل للكاتبة السورية: سوسن جميل حسن. وكما هو واضح من العنوان، كان الليل هنا كساء معنويًا يرتديه الحكي، ويرتديه الشخوص، ويرتديه الوطن كله. الليل هنا ليس قصة حزينة عن الحرب، يستمع إليها أحدهم في مقهى، كما في ليلة لشبونة، بل هو أقسى من ذلك كثيرًا، لأنه يوميات تجري حية، وعلى القارئ أن يعيشها بكل ما فيها من ألم وخسارات. كيف اغتصبت الهويات، كيف قتلت حتى الآمال داخل النفوس، وكيف أصبح الوطن الذي كان الحضن الأخير المتفرد، إلى متشرد هو أيضًا يفر من الموت، ولكنه يموت في النهاية. لقد كانت حياة، بطلة القميص، وراوية الليل تكتب يومياتها، كانت تكتب نفسها، وفي الوقت نفسه تكتب ضياعًا عامًّا يحدث أمامها ولا تستطيع أن تفعل شيئًا سوى المكوث في الليل إلى ما لا نهاية.. عشرات الحكايات التي اقتنصها الليل أو اقتنصته، تسمّى بها وتسمّت به، وهناك أيضًا حكايات يفترسها الليل الحقيقي، أو المعنوي لكنها تحمل أسماء أخرى، وأظن أنه مع ما يجري الآن في العالم، من سيطرة الليل المعنوي على شئون الحياة، في كثير من البلدان، سنرى في المستقبل، أعمالًا جليلة، كلها في الليل وعن الليل، وأظن شخصيًّا أن لا خيال سيلعب أي دور في تلك الحكايات، فقد صيغت واقعيًّا بخيال يفوق كثيرًا، خيال الأدب والأدباء.

لغز الأدب العربي

لقيت في أحد الأيام رسالة قصيرة، من ناشر يبدو مهمًّا، في إحدى دول أوروبا الشرقية، يقول فيها: إنه قرأ إحدى رواياتي الصادرة منذ وقت قريب باللغة الإيطالية، ويطلب الموافقة على ترجمتها إلى لغته، ونشرها، بالرغم من أن الأدب العربي في بلاده لا يحظى بأي التفات من أحد، ولا يمتلك سُمعة جيدة، تتيح له أن يكون واحدًا من الآداب التي ينساق الناس لمطالعتها، وغالبًا ما يوجد محصورًا في دوائر الأكاديميين الذين يطالعونه بغرض الدراسة فقط. وعندما سألته مندهشًا، عن سر رغبته في ترجمة نص عربي، وهو يعرف أنه لن يوزع شيئًا، قال أنه أحبَّ النصَّ، وسيُلزم قراء كثيرين يعرفهم بأن يقرأوه، وربما تصبح للأدب العربي سُمعة طيبة فيما بعد، إذا ما تُرجمت أعمال جيدة في فترة متقاربة. كلام هذا الناشر الأوروبي، الشرقي، كان مستفزًّا فعلًا، وبدا لي أنه يقلل كثيرًا من شأن الأدب العربي الذي أزعم بأنه الأدب الوحيد الذي تنتجه بلاد متعددة، ومختلفة عن بعضها، في أشياء كثيرة، لكنها تكتب باللغة نفسها، فالرواية التي يكتبها أحدهم عن الريف في مصر، ليست هي التي يكتبها آخر عن الريف في سوريا أو اليمن، بالرغم من استخدام أدوات الكتابة نفسها، وقصيدة أمل

دنقل التي تتحدث عن الموت، ليست هي قصيدة درويش التي تحكي الموضوع نفسه، والأدوات هنا أيضًا واحدة. بينما في أوروبا، ومع اختلاف الأجواء والمجتمعات وبعض العادات والتقاليد، من بلد لآخر، نجد اختلاف اللسان أيضًا، بل ونجد عداء بعض الألسنة لغيرها، من دون سبب وجيه، وما زلت أذكر حين دخلت مطعمًا صغيرًا في مدينة ميلانو الإيطالية، يديره زوجان مسنان، طلبت طبقًا من بيتزا الخضراوات، باللغة الإنكليزية، فحملت المرأة المسنة، مكنسة ورفعتها في وجهي، وهي ساخطة من التحدث إليها بلغة غير لغتها. المهم، أن رسالة الرجل الواضحة، الصريحة، تبين بالضبط موقع الأدب العربي، في تلك البلاد، وغالبًا في غيرها، من دول أوروبا الشرقية، بالنسبة للآداب الأخرى، وتلك السمعة السيئة التي اكتسبها، مما يجعل مسألة انتشاره، أو حتى مجرد زحفه على استحياء، ليُقرأ لدى قليلين، تبدو مستحيلة، وشخصيًا لا أعتقد أن هناك من قارن الأدب العربي بغيره من الآداب، وألبسه سمعة سيئة بعد ذلك. إنها نظرة أساسية عمياء، لن تتغير بسهولة، ولا تشمل الأدب العربي وحده، وإنما تشمل كل ما يأتي من العرب من فنون موسيقية ومسرحية، وربما لوحات تشكيلية أيضًا، ولذلك تصبح مسألة تغيير النظرات غير البريئة، والسمعة المقصود أن تصبح سيئة، مسألة صعبة كما قلت. في أحد الأيام، حصل غابرييل غارسيا ماركيز على جائزة نوبل للآداب، فالتفت الناس كلهم إلى الأدب اللاتيني الأمريكي، واكتشفوا أن هناك دنيا ثقافية مختلفة، شبعانة،

ومرتوية، ومستعدة لتمد الآخرين بالشبع والارتواء. ومنذ مدة قليلة حصل الصيني مو يان على نوبل أيضًا، والآن يعيش الأدباء الآسيويون في بحبوحة من اللمعان، وسهولة العيش، فالأنظار عندهم ومعلقة بهم، وموضة القراءة في العالم، أن تقرأ للآسيويين لأن لديهم سحر الكتابة، وعظمة اللغة، والأجواء التي لن تعثر عليها في مكان آخر.. وأورهان باموق الكاتب التركي، وبجائزة نوبل التي حصل عليها في إحدى السنوات، جر القراء إلى بلاده، ليظهر بعد ذلك كتاب أتراك كثيرون، لم يقلل من شأنهم أحد، ومعروف هذه الأيام، أن الناس كلها تقرأ للكاتبة إليف شافاق: قواعد العشق الأربعون، روايتها عن جلال الدين الرومي، والدرويش شمس التبريزي، والذي لا يقرأ تلك الرواية، في نظر الكثيرين، لا يستحق أن يسمى قارئًا. ثم، وفي سنة كانت حدثًا بالنسبة للعرب، حصل العظيم نجيب محفوظ، أحد أعمدتنا الكتابية، على تلك الجائزة نفسها، الجائزة التي تقدم في استوكهولم في السويد، وقيمتها المادية كانت أقل من مليون دولار، ثم تجاوزت ذلك المبلغ إلى ما بعد المليون، وقيمتها المعنوية، لا تقدر بثمن، لأن المواطن العادي البسيط حتى في أريافنا نحن العرب، يعرف ألفريد نوبل، وكفارته التي أخرجها حين صنع الديناميت. الذي حدث أننا لم نكسب كثيرًا، من خلف جائزة محفوظ. لم نجر رجل القراء وأذهانهم نحو كتابتنا، التي في رأيي لا تقل عن أي كتابة أخرى. لم يصبح أحد كتابنا، من أي جيل من الأجيال، نموذجًا أخّاذًا يطارده القراء الأجانب،

وتسعى أجيال الكتابة الجديدة، في أي مكان، لاستضافته والتعلم منه. الجائزة جاءت، وانتهى وقتها، ونسيها الناس، ولم تعد تُذكر إلا حين يُذكر أمر يخص الراحل الكبير، ولا جديد. كأنها ليست جائزة استوكهولم نفسها.
شيء آخر، كان يجب أن أشير إليه قبل أن ألوم الناشر الأوروبي، على نظرته ونظرة بلاده لآدابنا، وهو أننا حتى في بلادنا التي خبرناها، وكتبنا آمالها وآلامها على حد سواء، أصبح العثور على القارئ، أمرًا في غاية الصعوبة. قديمًا كنا نتحدث عن الظروف الاقتصادية، وكيف أنها تكبل الناس في نشاطات أخرى خاصة بسبل العيش، وتُبعدهم عن القراءة. الآن، صرنا نتحدث عن الفوضى التي ألَمَّت بكثير من دول العرب، وأفقدتها نعمة الأمان والاستقرار. من يقرأ في بلد يئز فيه الرصاص ليل نهار؟ من يقرأ في بلاد تتهدم بيوتها، وتحترق منشآتها، ويموت أطفالها بلا معنى؟ شخصيًا، أصبحت أعتقد أن لا جدوى من أي كتابة نكتبها، لا جدوى من اكتساب المعرفة، وضخها في كتب، هناك أشياء أهم، وهناك الإنسان الذي لو لم ينعم بالسلم والأمان، فلن يستوعب حتى سطرًا واحدًا من أي كتاب، وإن كان لا بد أن نكتب، بسبب انتشار مرض الكتابة لدينا، خاصة في السنوات الأخيرة، فلنكن محليين، بعيون كلها موجَّهة نحو البحث عن القارئ الأصلي الآمن، والمستقر من الناحية النفسية، وليس القارئ البعيد الصعب، وربما علينا أن نخترع مثل هذا القارئ.

أن تستمر كاتبًا

قبل أكثر من عشرين عامًا وأثناء قراءاتي المكثفة، التي شملت الشعر والرواية والنقد، والتاريخ، والمجلات الثقافية التي تصدر هنا وهناك، وكل ما يمكن أن يمنح معرفةً، قرأت لكثيرين أظنهم كانوا مبدعين في مجالاتهم. قرأت روايات عظيمة، وقصائد عميقة وتطرب، وما زلت أتذكر بعض المقاطع الشعرية والنثرية، من تلك الفترة. لكن ما لاحظته أن عددًا كبيرًا من أولئك المبدعين، اختفوا تمامًا عن سماء الإبداع، كأنهم لم يكتبوا يومًا، وما عدت أرى سيرة لأحدهم، أو عملًا جديدًا، باستثناء صور قديمة، قد تُنشر في تحقيق صحافي عن الكتابة، ويلتقي كاتب التحقيق بواحد من أولئك مصادفة، يدخن النرجيلة في مقهى ضاج، لا علاقة له بالثقافة. وفي أثناء محاولاتي نشر كتاباتي الأولى، بالسفر إذا استطعت، وزيارة دور النشر المختلفة، تعرفت إلى كثيرين أيضًا، إما يسعون مثلي لنشر كتاباتهم الأولى، وإما كتاب راسخون لدى دور نشر معينة، ويزورونها من حين لآخر، لإلقاء نظرة على كتبهم المرصوصة في بهو الدار، وهي إحدى متع الكتابة التي أعرفها جيدًا، وهي أن تقف وتتأمل ما أنتجته، في مكتبة أو رصيف محطة، أو أي مكان آخر يمكن أن تعرض فيه الكتب.

وما زلت أذكر شاعرًا رائعًا، من مصر، التقيته في أمسية شعرية، أقامها لي زملائي الطلاب في مدينة طنطا، وجاء ليحضرها منساقًا خلف إعلان خجول مُعلَّق على واجهة قصر الثقافة حيث تُقام الأمسية. ثم ليصبح ذلك الشاعر العظيم حقًّا في كتابته، برغم الفقر والتشرد على أسطح البيوت، رفيقًا في كل شأن ثقافي. وعبره تعرفت إلى مثقفين آخرين، ومعه طرقت أبواب النشر في القاهرة، واختفى بعد ذلك بلا أي خبر. لم أره بعد أن تركت مصر، ولا قرأت له مجموعة شعرية، ولا يملك أي سيرة داخل محرك البحث جوجل، الذي تعثر بداخله، حتى على سير الأجنة قبل أن تولد، وسيرة الرضَّع في أحضان أمهاتهم. كانت قصيدة الشتاء الرائعة، التي يرددها دائمًا، هي دليلي في البحث عن ذلك الشاعر، لكنني لم أعثر عليه. أيضًا أذكر، أنني تعرفت في السودان وفي فترة الدراسة الثانوية، على شاعر آخر كان مبهرًا، وكنت أتعلم منه إيقاع القصيدة، والبحث عن الفكرة، وأصبح مرشدًا لي في كتابة الشعر الأولى، وليختفي بعد ذلك، بلا أي صيت أو أثر إبداعي يمكن العثور عليه، وإضافة لهذين النموذجين، يأتي كاتب رواية اسمه حسين، وكاتب قصص قصيرة، اسمه سعد، وآخرون بدأت أسماؤهم تتسرب من الذاكرة، أو تأتي بصعوبة عند محاولة تذكرها. الذي أردت قوله إن عددًا من المبدعين قد يبدأون السكة الإبداعية معًا، وبالطبع في سكة مبكرة، يستمر بعض أولئك المبدعين، ليأخذوا حظًّا كبيرًا في اللمعان، وينتجوا مؤلفات تصبح معروفة للقراء، بينما

يتوقف الآخرون عن الكتابة تمامًا ويتواروا في زخم الحياة الكبير، منهم من ينشر عملًا واحدًا أو عملين، ومنهم من لا ينشر أي شيء، وتضيع كل بداياته التي كانت مبشِّرة، بالرغم من الحماس الكبير الذي يمتلئ به في أيام الظهور الأولى. حقيقة ليس لدي تفسير منطقي لتلك الظاهرة، أي ظاهرة التوقف الكلي عن النشاط الإبداعي، والتواري عن سكته تمامًا، وربما رجمه بالحصى، إن صادف وذكر أمام المبدع الذي توقف. لكن ثمة عوامل كثيرة تتحكم في هذا الأمر، فتجعل مبدعًا يستمر، ومبدعًا ربما أفضل منه، يذوب بلا ذِكر. أنا أعتقد في العوامل الاقتصادية أولًا، وهي من أكثر العوامل الحياتية إحباطًا للكاتب والشاعر والمسرحي والفنان، وكل من ينفق وقتًا في صياغة عمل إبداعي. هنا المبدع يجد نفسه مضطرًا لترك كل جنون فكري أو فني، والسعي للبحث عن لقمة العيش، فتصبح الحياة إذًا ذات أولوية، تأتي قبل الإبداع، الذي يمكن سرقة وقت له بين حين وآخر، وتدريجيًا، ينخرط المبدع في السكة غير المبدعة، ناسيًا حتى سرقة الوقت، وبالتالي لا إبداع، ولا سيرة إبداعية ستُسجل له.

ويعتبر نشر الكتب خاصة في أيام بداياتنا وقبلها، من العوامل المحبطة حقًا، كان عدد الناشرين قليلًا جدًّا، ولا ينشرون إلا للأسماء المترسخة، أو الكتاب الذين يستطيعون تمويل أعمالهم، وقد ارتبطت الكتابة الجيدة، بالفقر في أغلب الأحيان، وهكذا تضيع من دون أن توثق. من الأشياء

التي تساهم في إمحاء الإبداع، وخمول سيرة المبدعين، ما أسميه تغيُّر الفكر، أو تغيُّر المواقف، فكثيرون كانوا يكتبون تحت مظلة فكرٍ ما، ثم تغيروا عنه، وتغيرت نظرتهم للإبداع تمامًا، خاصةً هؤلاء الذين كان يُظِلُّهم اليسار وتروَّج لهم بعض الأحزاب اليسارية في بداياتهم، ثم تحولوا إلى اليمين المتطرف، وأجبرهم تحولهم على النظر إلى الإبداع نظرات كلها ازدراء. ولديَّ نماذج أعرفها من هؤلاء، رغم أنني أعرف قراء ومتذوقين في غاية التدين، لكنهم لم يزدروا أي إبداع إنساني، لا يمس المقدسات. لكن في رأيي إن أهم ما يجعل الكاتب، أو المبدع عمومًا، يستمر، وينتج باستمرار، متحديًا كل العوامل الاقتصادية، والحياتية، هو تبنِّي مشروع ما، والاقتناع بجدواه، برغم عدم وجود عائد ظاهر. بمعنى أن كتابتك هي مشروع حياتك، رسمك للوحات، هي مشروع حياتك، وهكذا لن تضيع المشاريع أبدًا. إذًا العوامل كثيرة، وبعضها يعتبر عائقًا حقيقيًا في سكة الإبداع، ولكن كل عامل يمكن دحره، ما دام المشروع مؤطَّرًا، ويجب أن يقف على قدميه ويمضي إلى بعيد.

اختيارات

بوصفي قارئًا مواظبًا في المقام الأول، وأزعم أنني من الذين يتابعون الإصدارات الجديدة، واختيارات القرَّاء من الكتب والترويج لها في كل عام، فقد انسقت وراء عدد من تلك الاختيارات، وبالتالي قرأت روايتين للأفغاني خالد حسيني، هما «عدَّاء الطائرة الورقية»، و«ألف شمس مشرقة»، كانت نشرتهما بلومزبري قطر بالعربية بالتتابع. وكنت أشاهد بعيني في رحلات خارجية، حين أزور المكتبات، كيف أن الناس يتقاتلون على شراء ما أسميته: ماركة خالد حسيني، بغض النظر إن كان قد أجاد في الكتابة أم لا؟ أو إن كانت أعماله تستحق بالفعل أن يشارك أحدهم في التدافع من أجل الحصول عليها!

بالنسبة لـ«عدَّاء الطائرة الورقية»، فهي القصة التي ينبغي أن يكتبها مهاجر أفغاني خرج أهله من بلد انتهت صلاحيته في الإيواء كوطن يسع الجميع، حين سيطر عليه حزب الطالبان، وفرض شروط الوطنية التي لن تنطبق على أي فرد آخر بخلاف أفراد الطالبان. قصة مُحكمة ومربكة، وشديدة الإيحاء وهي تمسك بالأزمة من قبل بداياتها، وتسعى وراء أي حل ممكن. الأفغاني الأمريكي الحر، لا يظل

أسير حريته في البلاد البعيدة، لكنه يعود لإنقاذ طفل تركه صديقه، وبالتالي هو يعود ليصف بلاده بعد أن زالت ظلالها وبساتينها، وشوارعها، وأحضان أمهاتها، وكل تلك العلامات الكبيرة التي كانت تجعلها بلادًا.

القارئ يبدأ مع الراوي حين بدأ طفلًا، يستمر معه في أيام الرعب، وسنوات الحلم البعيد، ويعود معه راكبًا أيام الخطر وهو يبحث عن الطفل الذي تركه عدَّاء الطائرة الورقية. ولعل التقاط هذه الرواية من قِبل السينما وتحويلها إلى شريط سينمائي ناجح، جعل قراءتها تزداد، وكنت كتبت رأيًا من قبل ذكرت فيه أن السينما أداة مطلوبة للترويج للرواية. «ألف شمس مشرقة»، عمل آخر مهم لحسيني كونه يلتقط الهم الوطني نفسه، مع التركيز على المجتمع أكثر، فترى قصصًا متشابكة، تؤدي إلى قصص متشابكة، ولكن يأتي الإمتاع في النهاية. اختيار القراء هنا، ومع كاتب مثل خالد حسيني، يبدو لي جيدًا وصادقًا وليس نابعًا من انسياق وراء شهرة، فالعملان الروائيان اللذان ذكرتهما، فيهما مجهود كبير، من ناحية صناعة الفكرة، وصناعة حِيَلها، واللغة المستخدمة، التي كانت سهلة، وخالية من التعقيد. إنها عدة الكاتب الجيد، لكنها ليست عدة الكاتب الظاهرة، وقد أصبح حسيني ظاهرة بلا شك، هنا مع الإجادة، تتدخل عوامل كثيرة، تنتقي كاتبًا جيدًا من وسط كتاب آخرين جيدين، لترسمه في ملايين المخيلات، وتحوله إلى ظاهرة، وربما تأتي عوامل

أخرى أشد بطشًا وسطوةً لتنتقي كاتبًا غير جيد بالمرة، وترسمه في ملايين المخيلات أيضًا، محولةً إياه إلى ظاهرة. لن أتحدث عن تلك العوامل ذات السطوة، لأنني لا أعرفها حقيقةً، فقط أقول بكل ارتياح، إنني أسعد كثيرًا حين أرى كاتبًا جيدًا أصبح ظاهرة، وبذلك سعدت بكتابات خالد حسيني، والياباني هاروكي موراكامي، والآن أقرأ ما تكتبه التركية إليف شافاق، لأرى إن كان تحويلها إلى ظاهرة، كان إيجابيًا أم لا..

لدينا قصص عن الديكتاتوريات

أذكر في حيثيات منح الرومانية هيرتا مولر، جائزة نوبل للأدب عام 2009، أن اللجنة ذكرت بأن من أسباب منحها الجائزة: إن لديها قصة ترويها. والمعروف أن تلك السيدة، ولدت ونشأت في ظل حكم نيكولاي شاوشيسكو، أحد أشرس ديكتاتوري شرق أوروبا، وإنها ما استطاعت أن تنجز، وتصنع لها اسمًا أدبيًا، إلا بعد أن فرَّت من رومانيا إلى ألمانيا في منتصف ثمانينيات القرن الماضي. إذًا، فقد كانت لديها قصة ترويها بالفعل، فلا بد لكل كاتب ينشأ في بلد يحكمه شاوشيسكو، أن تكون لديه قصة طويلة، أكيد هي قصة الخوف والرعب، والحياة مقصوصة الجناحين، في بلد لم يكن يمنح حق السفر، ورؤية العالم لأحد، ولا حتى حق التنفس بعمق، أو استخدام أي لغة ليست لغته، ولو في السر، وقد قرأت رواية قصيرة لمولر ترجمت من ضمن مشروع كلمة الإماراتي الرائد منذ فترة، لا أذكر اسمها، ولكن أذكر الإدهاش الذي لازم قراءتي لها، منذ الصفحة الأولى وحتى انتهت، قصة عن مهاجرين رومانيين فارّين من بلادهم لألمانيا، كما هو متوقَّع، قصصهم وهم يعيشون بذاكرات تحاول بقدر المستطاع أن تُسقط زمن رومانيا القديم، وتنحت في المستقبل باحثة

عن زمن الحرية الألماني القادم لا محالة بعد حصولهم على جوازات السفر.

المهاجرون في وضع ساكن كما لو كانوا ما يزالون أسرى وطنهم السجن، الفقر ما يزال موجودًا، العري موجود، لكن الجديد في الأمر، كان الأمل. ويبدو أن الكاتبة أرادت أن ترسم المجتمع الروماني المهاجر بقطاعاته كلها، فقد كانت تلك القرية التي أوت المهاجرين، تضم الشرائح كلها بالفعل، وتضم ألمانًا يبدون متعاطفين أو محايدين في صحبتهم لضيوفهم. أعجبتني لغة مولر كثيرًا، هي لغة مميزة فعلًا، يحتل الشعر جزءًا كبيرًا منها، بل يحتلها كلها، وهنا يبدو للحكي طعم آخر، العبارة التي لا تصف النوم العميق بأنه عميق، ولكن تقول: كان النوم بعيدًا جدًّا، لن تدركه الكوابيس. وأنا شخصيًّا من الذين اختاروا الكتابة بلغة الشعر، وبالتالي أحي كل إبداع يمد يدًا للشعر، وكل إبداع يدخل الشعر في طعمه. هيرتا مولر كانت لديها قصة ترويها، جابرييل ماركيز كانت لديه قصة أيضًا، وهي قصة تقترب من قصة مولر، من حيث نبش الديكتاتوريات، وإدانتها أدبيًّا، وتبتعد عنها حين تُروى بالبهارات الماركيزية، التي تشمل السحر والأسطورة، والواقع الذي يشبه واقعنا ولا يشبهه، وأنا لديَّ قصة مختلفة، أرويها بطريقتي أيضًا، وغيري من الذين يكتبون، لا بد يتكئون على قصص، يتشوقون لروايتها أيضًا. ويوجد في كل بلد، وكل مجتمع أشخاص يملكون

القصص، ولا يستطيعون روايتها بسبب عدم قدرتهم على الكتابة، أو عدم معرفتهم للكتابة أصلًا، ولذلك تجد دائمًا كتّابًا نشأوا في مجتمعات ما، تطوعوا لإيصال تلك القصص إلى الناس عن طريق حكايتها في نصوص أدبية، وقد حضرت مرة في الخرطوم، لقاء مع الكاتب العظيم: إبراهيم إسحق إبراهيم، الذي لا يعرفه الناس خارج السودان، مع الأسف، وكان من الذين كتبوا وما يزالون نصوصًا ساحرةً، شديدة الجمال والخصوصية. لقد وصف إبراهيم نفسه في ذلك اللقاء، بأنه مجرد عرضحالجي، يكتب ما يرويه الناس من دون أي تدخل، وقصصه عن آل عثمان، هي قصصهم هم، وإن كان ثمة ثواب فهو ثواب العرضحالجي.

طبعًا هذا كلام رائع، لكن أكيد أن دور الكاتب كان أكبر من ذلك، فالعرضحالجي، يكتب القصة كما وردت من اللسان، والكاتب الموهوب مثل إبراهيم، يبهرها ببهاراته، فتخرج بالطعم المطلوب. مما ذكرت، فإن العالم كله قصص، بعضها يُروى لأنه بين يدي من يستطيع أن يروي، وبعضها يموت مع الذين يملكونه، لأن لا أحد منهم يعرف رواية الحكايات، وبعضها ينتشله أحدهم من مجالس السمر في القرى، أو الروايات الشفاهية التي يرددها الناس أحيانًا، وكان في زمننا آباء وأمهات يقومون بمهمة الراوي الشفاهي لقصص وأساطير، تبقى في الذهن، وغالبًا ما تثمر لدى من سيُصاب بمرض الكتابة مستقبلًا، وأزعم أنني استفدتُ كثيرًا من ذاكرة أبي

الفوتوغرافيـة، حـين كانـت تتـداح ذكريـات موحيـة للكتابـة، ومـن موهبـة أمـي في الحـكي الـتي أكدتـني بالكثـير أيضًـا. وقـد ذكـر أبي أنـه عـاصر أشـخاصًا كانـوا يطوفـون بالقـرى، يتسـولون الكـرم مـن النـاس، يمدحونهـم أو يهجونهـم بحسـب الظـروف، ويتناقـل النـاس المـدح والهجـاء بعـد ذلـك، قـد يُنقـل كمـا هـو وقـد يضـاف أو يحـذف منـه شيء. الحكاية الشـفاهية، في رأيي، هي عظم الحكايـة المكتوبة، ومثلما يدهـن الجـدار الأسـمنتي بالصبغـة ليلمـع، تدهـن الحكايـة المكتوبـة، بصبغـة الفـن الكتـابي حـتى تلمع، وتنتشر وتصل إلى أبعـد مكان. ولـو كانـت هنـاك جوائـز تمنـح للـرواة الشـفاهيين لحصـل عليهـا نفـر ليـس بالقليـل، في طـول الدنيـا وعرضهـا. هيرتـا مولـر مُنحـت نوبـل لأن لديهـا حكايـة، هـذا أولًا، وأيضًـا لأن لديهـا أسـلوبًا مميـزًا لا يشـبه أسـاليب الآخريـن، والأهـم مـن ذلـك مـا أردد دائمًـا، إنـه الحـظ سـاعة أن ينـادي البـع ليأخـذوا جائـزة، فهنـاك آلاف مـن المبدعـين، لديهـم قصـص تـروى بشـكل بديـع أيضًـا.

بيوت الديكتاتوريين

في مكتبة صغيرة في مدينة مانشستر البريطانية، عثرت على كتاب مصور رخيص اسمه: بيوت الديكتاتوريين، قام بإعداده صحفي بريطاني، والكتاب كما هو مبين من عنوانه، من نوع تلك الكتب التي غالبًا ما تكون تحقيقات فضولية، يقوم بها البعض، وينشرونها في الصحف، ثم يجمعونها في كتاب. ولا أعتقد شخصيًّا أنها تهم قطاعات كبيرة من القراء، باعتبار أن البيوت حتى لو كان يسكنها ديكتاتوريون، أو سفاحون هي في النهاية لا تدخل بقوة في التاريخ الشخصي لأولئك السكان، وأيضًا أن أولئك الموصوفة بيوتهم، لم يحكموا العالم كله، ليهتم بهم، وإنما حكموا شعبًا معينًا، وللأسف لا تنكشف سوءاتهم، وتوصف بيوتهم في مثل هذه الكتب، إلا بعد موتهم أو إسقاطهم، كما لاحظت في كل النماذج التي أوردها هذا الكتاب، ابتداءً من جوزيف بروس تيتو، الذي حكم يوغسلافيا السابقة منذ أربعينيات القرن الماضي، حتى الثمانينيات، إلى صدام حسين، العراقي الذي أُسقط في الألفية الجديدة. لكن ما يجعل مثل هذا الكتاب شعبيًّا، ويمكن أن يتصدَّر قوائم المبيعات أيضًا. في الغالب، ذلك الكم الهائل من الفضول الذي يكتسينا جميعًا من مجرد مشاهدة العنوان،

وتلك الرغبة الكبيرة، أن نرى كيف كان يعيش أولئك الذين تبدو حياتهم الخاصة بعيدة تمامًا عن التصور. في البداية أؤكد أن الديكتاتورية في حد ذاتها، مرض من الأمراض المزمنة. يُصاب به البعض ولا يُصاب البعض الآخر، ليست ديكتاتورية حكم الشعوب وإذلالهم والتحكم حتى في أمزجتهم، فقط، ولكن أيضا ديكتاتورية أن تدير وتتحكم في محل للحلاقة مثلا، به عدة عاملين، وأن تكون مناديًا للسيارات في موقف يضطر الناس إلى دخوله والخروج منه، وأيضًا أن تكون ربة منزل، تمتلك صلاحية أن تجوع سكانه أو تشبعهم، وما زلت أذكر بالرغم من مرور زمن طويل، عثمان هيصة، سائق العربة الفقير الذي عمل في إحدى المؤسسات الزراعية، أقصى شرق السودان، أيام أن كنت أعمل هناك، وكان بما يسكنه من أعراض مرض الديكتاتورية، قادرًا على التحكم حتى في رؤسائه الفعليين، وتسييرهم حسب إرادته، وكان عاديًا جدًا أن تجد سيارة المؤسسة الخاصة بالمدير، مركونة أمام بيته في أي وقت، بينما المدير يمشي في البلدة على قدميه. وأظنني ذكرت في كتابي مرايا ساحلية، الذي تحدثت فيه عن سيرة مدينة بورتسودان أوائل سبعينيات القرن الماضي، ابن عوف، الخفير بالمستشفى، القادم من شمال السودان، حين كان يتحكم في باب الدخول، مانعًا المرضى ومرافقيهم من الدخول، وأحيانًا لا يسمح حتى للأطباء بالدخول لممارسة عملهم. ولدرجة أن مظاهرة تهتف بسقوطه، أسوةً بالديكتاتوريين العظماء، اندلعت في المدينة ذات يوم.

وتعودت أن أجد في كل مكان أذهب إليه، أو تربطني به صلة عمل أو كتابة، ديكتاتورًا يتوج نفسه عائقًا أمام أي سهولة أو سلاسة، لا لشيء، سوى أنه مصاب بمرض الديكتاتورية. بعيدًا عن نماذجي، بالطبع، يأتي الكتاب بشرح واف عن كل ديكتاتور ورد ذكره، وفترة حكمه إن كان حاكمًا، أو تقلده لوظيفته إن كان في وظيفة أخرى ذات مسئوليات كبيرة، مع نشر عدد من الصور التي تبين الداخل المخفي، المريب، الشادّ للفضول بالتأكيد، في كل بيت. لكن ماذا يتوقع أن يطالع القارئ في الكتاب، أو يعرف ماذا في داخل هذه البيوت؟ في الحقيقة، وفي أي كتاب سيبدأ أحد قراءته، لا بد أن ثمة تصورات. كتاب عن راقصة يمنح تصورات معينة، عن مغن أو لاعب كرة، يمنح تصورات معينة أيضًا، وحين يطرح لاعب التنس أندرية أجاسي كتابًا عن حياته، يستطيع من ينوي قراءته أن يتخيل أمجادًا رياضية، وحياة كلها نجاح، تلمع في كل صفحة من صفحات الكتاب، وهكذا داهمتني الهواجس في، وأنا أبدأه، أتوقع أن يسيل الدم من صفحاته، أن تكون الديكورات الداخلية جماجم، والسجاد على الأرض، من أجساد البشر، لكن شيئًا من هذا لم يحدث في الواقع، كانت البيوت كلها تقريبًا متشابهة في تأثيثها، وتشبه أي بيوت ربما يملكها مواطنون عاديون في أي مكان. أصص الأزهار في كل ركن، الزوايا الخشبية التي تحمل التحف الصغيرة، والمكتبة التي في الغالب بطول الحائط وممتلئة بالكتب المتنوعة. يوجد سجاد يبدو عاديًا وليس من النوع الغالي

أو الفاخـر، توجـد غـرف نـوم وغـرف جلـوس مفروشـة بعنايـة، لكنهـا ليسـت فاخـرة جـدًّا، ربمـا كان ثمـة ببغـاء في قفـص، أو حـوض لأسـماك الزينـة، بـه عـدة سـمكات، وباسـتثناء الخزائـن الخاصـة بزوجـات بعـض الديكتاتوريـين، وأشـهرها صـورة خزانـة أحذيـة إميلـدا ماركـوس، زوجـة رئيـس الفلبيـن القديـم، والغاصـة بـآلاف الأنـواع مـن الأحذيـة، لا يوجـد شيء غريـب. إذًا وباختصـار شـديد، فـإن معظـم مـا ذُكـر عـن هنـا، لـم يكـن مثـيرًا أو مشـبعًا لفضـول القـراءة، ولا أحسسـت بـه يغطـي العنـوان الكبـير الممـد في الكتـاب. ربمـا كانـت تلـك البيـوت هكـذا فعـلًا، وربمـا لـم تنبـش جيـدًا ولـم تقـرأ سـيرها جيـدًا، وبالتـالي كانـت كتابتهـا ونشرهـا، مسـألة بـلا معـنى.

تشابه البيئات

تقول القارئة مها من السودان، وهي أيضا كاتبة لها محاولات في كتابة القصة لا تعرف إن كانت ناجحة أم لا! تقول في رسالة لي، إن الحي الذي تقيم فيه في الخرطوم، يشبه الحي الشعبي الذي أتخذه نموذجًا في أعمالي عن المدينة، والشخصيات التي فيه، هي تقريبًا الشخصيات نفسها التي قرأتها عندي، مثل شخصية المرضعة قارئة المصائر، والمغني الذي يمكث أربعين عامًا ليلحن أغنية، والنساء البائسات اللائي ينتظرن أحبة لا يأتون، ويسقطن سريعًا في فخاخ المحتالين، ثم وجَّهت لي سؤالًا: هل أقمت في حيِّنا فترة من الزمن، لتكتبه بعد ذلك؟ سؤال القارئة مها، أعتبره سؤالًا جادًا وليس سؤالًا ساذجًا وخاليًا من النكهة، وقد سألته بناء على معطيات وصفتها في الرسالة، لكن حقيقة أنا لم أُقِم في حيهم، ولا أي حي آخر في العاصمة، لأنني نشأت إقليميًّا، واستمررت إقليميًّا، حتى هاجرت من البلاد. الذي يحدث في الكتابة الإبداعية، إنها تستنطق البيئات المحلية لأماكن ما، تستوحي شخصياتها وشوارعها، ولياليها وصباحاتها، وحتى روائح العطور التي تعبق في أجساد شاغليها. ولأن البيئة السودانية في مجملها بيئة واحدة، فلا غرابة في أن تتشابه جميع المدن في تلك

البيئة، وتتشابه معظم الأحياء، خاصة تلك القديمة التي ما تزال تحافظ على كيانها خالصًا بلا شوائب، ومن ثَم لا غرابة أن يولد مجنون مثلًا في حي ما، في مدينة ما، ويوجد نظير له في مدينة أخرى وحي آخر.

أقول بصدق إن في كل حي تقريبًا في أي مدينة من مدن السودان يوجد عدد من المجانين والمشردين، والمتسولين والعاطلين عن العمل، توجد بقالات يستدين منها الناس، وعربات «ركشة» تنقل الناس بين الأحياء. يوجد رجال عصبيون يصيحون في كل صغيرة وكبيرة، ورجال جادون يسعون لحل المشاكل. توجد نساء حزينات ونساء بائسات ونساء متطلعات، ويوجد أطفال بجميع السحنات تقريبًا، وجميع الشخصيات، من الهادئة الخجولة، إلى المتمردة التي ستقود صاحبها يوما للضياع. الشيء المهم هنا، أن مسألة تشابه البيئات هذه يمكن أن تنطبق أيضا على البيئات العربية أو الأفريقية كلها، بمعنى أن المجتمعات في البلاد العربية المختلفة، لها بعض الصفات التي تلتقي فيها، وقد قرأت ذلك التشابه في كثير من الأعمال الروائية العربية، ولم أستغربه، أيضًا شاهدت بنفسي، أشياء كثيرة في أقطار عربية، كنت أعرفها من بلادي، الاختلاف هنا في التسمية ربما، أو في طريقة تناول المواضيع التي تخضع لاختلاف اللهجات، مثلًا تستطيع بسهولة أن تجد رقصات شعبية مقابلة للدبكة الشامية، في بلاد أخرى، وتستطيع أن تقرأ الشخصية الواحدة، في كل البلاد، بلهجات مختلفة.

إذًا كانت القارئة على حق حين عثرت على معارفها داخل نصوص تقرأها بلا أي خلفية عنها، وأنا أيضًا على حق حين أقول بأنني كتبت أماكن أخرى، وكانت هي نفس المكان الذي حددته القارئة، لقد حكمت البيئة بذلك كما وضحت، والبيئة هي تربة النص التي ينمو منها مُحلِّقًا إلى بعيد.

سؤالان من قارئ

في ندوة عن الكتابة الإبداعية، شاركت فيها مرة، وحضرها بعض المهتمين بالكتابة والشأن الثقافي عمومًا، ولا جمهور عريض كعادة الندوات الثقافية، سألني أحد الحاضرين سؤالين مباغتين لم أتوقعهما:

السؤال الأول: هل تحس بعد هذه السنوات التي قضيتها كاتبًا، بأنك لم تعد في حاجة للتعلم، وقراءة تجارب الآخرين للاستفادة منها، أم ما زلت تحس بإحساس البدايات، وأن تجربتك لم تكتمل بعد؟

السؤال الثاني: كيف تعرف أن لك قراء، هل تملك إحصائيات بعدد الذين يقرأون كتبك، أم تظل تكتب لرغبتك في الكتابة، حتى لو لم يكن لديك أي قارئ؟

بالنسبة للسؤال الأول، أستطيع أن أقول وبارتياح شديد، إن لا كاتبًا مهما بلغ من العمر، واتساع التجربة وعمقها، يستطيع أن يؤكد بأنه أصبح فوق التعلم، ولن يقرأ تجارب غيره ويستفيد منها. وكما أن الحياة مدرسة كبيرة، وتمنح الذي يحيا في كل يوم حيلة جديدة، ستفيده في ما يأتي من أيام، فالكتابة أيضًا حياة لن تكف عن منح الذي يعشقها ويعيشها بجدية، مزيدًا من الحيل الداعمة. وأذكر أنني

كنت مرة مشرفًا على ورشة للكتابة، وكانت تضم عددًا من الموهوبين، جاءوا ليفيدوا ويستفيدوا من الذين سبقوهم، وحقيقة فإن ورش الكتابة ليست فصولًا للتقوية أو محو الأمية، ولن تكون جزءًا من دراسة نظامية أبدًا. إنها حلقات نقاش جادة، تضم خبراء في الكتابة، وشبابًا يملكون الموهبة والأفكار، وسيمتلكون الخبرة بكل تأكيد، في يوم من الأيام. هم يمضون أيام تلك الورش يعملون، ويسمعون الآخرين ويتحدثون، وفي النهاية قطعًا تنتهي الورشة بنصوص استثنائية وذات قيمة عالية. في تلك الورشة التي ذكرتها، بدا أحد المشاركين مستاءً من كونه سيكتب نصًا قابلا للنقاش أمام الآخرين، ووضّح صراحةً بأن نصه نهائي وغير قابل للنقاش، وكان لا بد لي من تصحيح ذلك المسار الخاطئ حين وضحت للمشارك، بلهجة قاطعة، بأن لا أحد هنا يملك نصًا نهائيًا، وأي نص حتى لو كتبه المشرف نفسه، يخضع للنقاش ويمكن أن يصبح أكثر جودة لو نوقش بأمانة وإخلاص، وهكذا انتبه المشارك إلى تسرعه، واستمرت الورشة لتنتج بالفعل نصوصًا جيدة، وراقية. ولعل آلية التحرير أو وظيفة المحرر السائدة في أوروبا وأمريكا، ونفتقر لها في الوطن العربي، والتي يخضع لها الكتّاب الكبار والصغار معًا بلا أي حساسية، أو إحساس بتقليل الشأن، توضح بجلاء أن الكاتب يتعلم، ويظل يتعلم إلى أن يضع القلم في النهاية طائعًا أو مجبرًا، لذلك لن يقول الكاتب الحقيقي، في يوم من الأيام، أنه أنجز تجربة نهائية، ولكن يمكن أن يقول أنه قدّم كل ما عنده ولا يعرف إن كان يستطيع أن

يقدّم المزيد أم لا! ولو تذكرنا الكاتب الأمريكي فيليب روث الذي اعتزل الكتابة أخيرًا، وهو في أواخر سبعينات العمر، وبعد إنجازه لحوالي ثمان وعشرين رواية كما أذكر، لأيدناه في قراره، فلا أظن أن هناك جديدًا يمكن تقديمه بعد هذه التجربة الكبيرة.

السؤال الثاني، الخاص بالقراء يبدو صعبًا وغير عادل في نظري، حين يُسأل لكاتب أمضى أكثر من عشرين عامًا في الكتابة، وله أعمال كثيرة. هنا تكمن الغرابة في أن السائل لم ينتبه إلى الاستمرارية في الكتابة، أو انتبه إليها وقام بتحييدها وتجاهل فاعليتها. فالاستمرارية في الكتابة وحدها من دون أي معيار آخر، تدل على أن الكاتب له قراء، وإلا ما اهتمت دور النشر بما يكتبه، ولا قامت بنشره بهذه الصورة، وأعادت طباعة بعض الأعمال. في بداياتي وحين كنت أكتب الشعر، سألني الدكتور عبد القادر القط، رئيس تحرير مجلة إبداع في ذلك الوقت، نفس هذا السؤال. كنت قد ذهبت إليه بقصيدة اسمها: نظرة أخرى للنيل، وكان فيها فقرة تقول: «لك النيل كان احتباسًا توطن في عافيات الشجون». سألني القط عن معنى ذلك، وأضاف: هل تتوقع أن يكون هناك قراء يستوعبون هذا الكلام؟ كانت إجابتي: نعم، هناك من يقرأ هذا الكلام ويستوعبه، وإلا ما كان هناك من كتبه. بعد ذلك نشرت القصيدة في إبداع، وبالفعل كان هناك من قرأها، وجاء ليناقشني فيها على المقهى.

في الواقع أنا لي رأي في مسألة القراءة هذه، وقد خرجت به بعد نظرة متأنية لما يكتب ويقرأ عبر سنوات طويلة. وإذا استبعدنا مسألة التجارب المميزة لبعض الكتاب، وكتاب الأكثر مبيعًا، الذين يعتبرون ظواهر غير قابلة للتفسير، نجد أن كل ما يكتب يقرأ، نعم كل من كتب حرفًا بأي قلم وأي مداد وأي مزاج جيد أو غير جيد، بموهبة أو عدم موهبة، يجد من يقرأه، وربما يتبناه ويسعى للترويج له وسط آخرين. المسألة ليست رقيًا في تلقي النصوص الجيدة، أو ضحالة في تلقي النصوص المتدنية، ولكنه تذوق بحت. فمثلما يتذوق أحدهم زقزقة العصافير وسيمفونيات بيتهوفن، وأغنيات فيروز، يتذوق آخر البكاء والشجن، وأغنيات الراب التي هي في الغالب مجرد صوت أجش يركض حاملًا كلمات بلا أي ألحان. لن أقول لصاحب السؤال، إن لي قراء ولن أريه إحصائية لأنني في الحقيقة أعرف أن هناك من يقرأني ولا يمكن أن أمتلك إحصائية، لأن هناك من يشتري الكتاب ليقرأه، هناك من يستلف الكتاب، وهناك من يحصل عليه مقرصنًا في الإنترنت، وبالتالي لا تستطيع أي دار نشر أن تحصي عدد القراء، فقط هي تحصي عدد النسخ التي وزعت. أيضًا سأقول لصاحب السؤال أن يكون أكثر حكمة فلا يطرح أسئلة لن يستطيع أن يجيب عنها أحد.

سير الكتاب

منذ فترة أرسل لي شخص لا أعرفه، ولم أسمع به من قبل، يخبرني بأنه مغرم بتتبع الكتّاب والفنانين منذ فترة طويلة، وينوي الآن أن يكتب بعض سير أولئك في كتب، تنشر تباعًا، وأنني مدعو للمشاركة بمعلومات عني من أجل أن أدخل واحدًا من تلك الكتب، إن كنت أريد، وسيقوم ذلك الشخص بمساعدتي، بأن يرسل لي حوالى مئة سؤال، تشمل كل جوانب حياتي تقريبًا، وما عليَّ سوى الإجابة عنها بأي أسلوب أراه مناسبًا، وإرسال الأجوبة له، ليقوم بإعداد السيرة كما يليق. وإن قبلت سأكون ملزمًا بالإجابة على كل الأسئلة. بالطبع هذا كلام غريب، ولا ينبغي الاستجابة له، ومنذ أصبح العالم مكشوفًا في تلك الاتصالات التكنولوجية السهلة، والوصول إلى أي شخص حتى لو كان في قاع بدروم، أو قعر كهف في أي مكان من الكرة الأرضية، متاحًا كما لو كان في غرفة مجاورة، أو بناية في الجانب الآخر للشارع، والغرابة تزداد، والصفقات غير المجدية تلاحق البعض، والاحتيال متوقع في كل خطوة يخطوها المتصفح لمواقع الإنترنت. ما معنى تتبع سير الفنانين والكتاب؟ وإلى أي حد تهم تلك السير الناس ليلاحقها أحدهم ويصدرها في كتب، وهذا الكاتب أو ذاك حتى لو كان نجمًا فهل يتوقع صاحب

تلك الرسالة، أن تحقق سيرته حضورًا لافتًا وسط سير من صنعوا الحضارة، وغيروا مجرى التاريخ بالاختراعات والاكتشافات العلمية التي من ضمنها، هذه الانترنت التي نستخدمها جميعًا بحذر وبغير حذر، ولا ندري كيف كان اكتشافها، وتطويرها، وإيصالها إلى هذه المرحلة؟ قلت لصاحب الرسالة، إنني لا أملك أي سيرة مهمة، ولن تكون لي سيرة فيها حتى عبر وعظات عادية، ناهيك عن فقرات يستفيد منها القارئ، وتنير له شيئًا من ظلام الحياة، لقد لعبت كرة الشراب، وألعاب الاختباء، وقرأت مجلات ميكي وسمير، و ألغاز المغامرين الخمسة، أحببت وانهزمت وأحببت ولم أنهزم، وسافرت وعدت وسافرت وعدت، وطوَّرت قراءاتي، وكتبت الشعر والروايات، ولا شيء آخر، وبالتالي لا سيرة مهمة، إلا تلك التي أوردها بنفسي داخل نصوص معينة، وهذه يتمسك بها القارئ باعتبارها شكلًا روائيًا وتدخل في جنس الأدب، ولن أقول بأن الأدب لا جدوى منه، لأنني تحدثت عن هذا الموضوع كثيرًا، وقرنته بالمعرفة التي هي أقصى فائدة يخرج بها القارئ من لهفته للكتب. هذا الموضوع يقودني للحديث عن السيرة الذاتية للكاتب حين يكتبها بنفسه، وحين يكتبها آخرون عاصروه، واستفادوا منه ومن أشخاص يعرفونه جيدًا. وبغض النظر عن أهمية تلك السيرة من عدمها، أعتقد شخصيًا إن الكاتب حين يضع سيرته أو بعضًا من سيرت بنفسه، تكون أكثر عمقًا، وأشد جذبًا من الناحية الأدبية، كما أن الحوادث التي ستروى، ستكون صادقة إلى حد ما،

كونها صادرة من المنبع، وليس من روافد صغيرة حوله. أمامي نماذج كثيرة لمثل تلك السير، لكني سأورد نموذج سيرة العظيم ماركيز التي كتبها بنفسه وصدرت بعنوان: نعيش لنروي، أو: عشناها لنرويها، وتلك السيرة الأخرى التي كتبها الإنجليزي بروفيسور جيرالد مارتن، بعد مجهود كبير، وأسفار متواصلة لأميركا اللاتينية، وصدرت في كتاب ضخم منذ عدة أعوام. في السيرة التي كتبها ماركيز بنفسه، لمست الإدهاش الحقيقي، لكاتب عاش حياته كلها مدهشًا، وحتى تلك الوقائع الحقيقية التي يرويها، يحسها القارئ غير حقيقية، أو متبلة بالخيال، ذلك أن الكاتب هنا، يثرثر أدبيًا، يسعل أدبيًا، ويحك جلد اللغة بأظفار الأدب، فتأتي السيرة أدبًا صرفًا، وكما قلت حتى لو لم تكن مهمة في المحتوى، فهي مهمة في لسع الوجدان، وجعل القارئ ينغمس في قراءتها بكثير من النشوة. السيرة الأخرى التي كتبها جيرالد، في رأيي أكثر أهمية من ناحية امتلائها بالمعلومات ليس عن ماركيز وحده، ولكن عن الحياة السياسية والاجتماعية التي كانت تتغير أثناء تتبع رحلة ماركيز، منذ كان طفلًا، ثم صحافيًّا في بلاده، ثم مشردًا في باريس إلى أن غدا نجمًا غزير اللمعان والثراء. هذه السيرة، أعني سيرة جيرالد، بالطبع مادة تُقرأ، لكن ليست أبدًا في جمال تلك التي كتبها ماركيز بنفسه، وأضاف لها كساء الأدب، ذلك أنه حرص على اقتناص المعلومة، كما أنه باحث عظيم ولكنه ليس كاتبًا أدبيًا. على أن ماركيز نفسه، كتب مرة سيرة لسيدة يعرفها اختطفها تجار المخدرات في كولومبيا، لتظل أسيرة الرعب

زمنًا طويلًا، وخرجت أخيرًا من محنتها لتروي له قصتها المثيرة، ليصيغها في كتاب سماه: اختطاف. وأقول بأنني للأسف لم أحس بوجود ماركيز الذي أعرفه، في ذلك الكتاب، ذلك أنه تعمد كما أعتقد، أن يكتب الوقائع الخاصة بتجار المخدرات بلا أي كساء أدبي، وكان يمكنه أن يفصل لسيرة السيدة ومافيا المخدرات، مئة ثوب براق لو أراد. لكن برغم ذلك، اكتسب كتاب اختطاف، أهمية خاصة في كولومبيا، وأمريكا، بعد أن ترجم للإنجليزية، ذلك أنه من الكتب المهمة التي ألقت الضوء على نشاط إمبراطور المخدرات: أسكوبار، وغيره من ملّاك مزارع المخدرات، وموزعيها، وكأن الكتاب فعلًا جاء في شكل بلاغ كبير، يستحق الاهتمام به. كان هذا غابرييل غارسيا ماركيز، وكانت سيرته استثناء بلا شك ليكتبها بنفسه، وليكتبها شخص آخر أيضًا، ولا أظن أن هناك كتّابًا كثيرين في العالم، سيتهافت أحد على سيرهم، لو كتبوها أو كتبت نيابة عنهم. لذلك أقول للشخص الذي راسلني يريد سيرتي، إن المشروع من بدايته لا يملك أي حظ في الوقوف على قدميه، وإن أحسست أنني بحاجة لكتابة سيرتي كاملة، بعد شذرات منها صدرت في شكل حكايات، أو نصوص روائية، سأتبلها جيدًا قبل أن أخرجها للناس..

كاتب الومضات

اعتـدت منـذ مـا يقـرب مـن عـام، وحـين أفتـح بريـدي الإليكـتروني في أول الصبـاح، أن أعـثر عـلى رسالة مـن كاتـب لا أعرفـه شـخصيًا، ولا حـتى عـبر الكتابـة، ولـم أسـمع بـه إلا مـن خـلال تلـك الرسـائل الصباحيـة اليوميـة، الـتي تحـوي مجموعـة ممـا يسـمى القصـة القصـيرة جـدًا، أو القصـة الومضـة، وهـي كمـا يبـدو فعـل كتـابي يومـي لـه، بدليـل أن الرسـائل ومـا تحويـه، لـم تنقطـع منـذ وردت إليَّ أول مـرة، قـط. حقيقـة كان لا بـد أن أسـتغرب مـن ذلـك الـشرف الـذي اختُصِصـتُ بـه، وهـي أن تصلـني تلـك الومضـات بهـذه الطريقـة، لكـن مـا حيرني أكثر، إن الكاتـب لـم يعـرف بنفسـه، كمـا هـي العـادة في مثـل تلـك الرسـائل، لـم يـترك لي تحيـة قـط، ولـم يخاطبـني بـأي لقـب، أو يطلـب رأيًـا في قصـة، أو مقدمـة لمجموعـة قصصيـة سـتصدر، خاصـة أن عـدد تلـك الومضـات، الآن قـد بلـغ الآلاف ولا بـد يحتـاج لسـتره بـين أغلفـة كتـب. في البدايـة كنـت أقـرأ مدفوعًـا بالفضـول، أقـرأ شـيئًا مثـل:

«قالـت البعوضـة لزوجهـا: هـل تحبـني؟ فأهداهـا باقـة مـن الـدم».

أقـرأ: «حـين أراد التاريـخ أن يـدوِّن قصـة حـبي لـك، أرسـلني

لشراء الورق والأقلام».

ثم قلَّ فضولي كثيرًا، وتحول استقبالي لتلك الومضات إلى عبء ثقيل، ووددتُ لو توقف. حقيقةً لم أعثر على أي جدوى في تلك الكتابة الغريبة، ولا أعتقد أن القصة القصيرة، أصبحت من المسكنة بحيث يمكن لمها هكذا، وكسوتها بتلك الملابس الضيقة، والسعي إلى طردها نهائيًا من سكة الإبداع، ولا أستطيع أن أفهم إن كانت قصة، مثل حب ذكر البعوض لأنثاه، أو مسألة التاريخ الذي يشتري الأقلام والورق، يمكن أن تجد قارئًا متفاعلًا، يستمتع بها، وتعلق في ذهنه طويلًا، والقراءة الآن كما نعرف متجهة بكل عدتها وعتادها نحو الرواية، وبالتالي أي صنف من الإبداع، لكي يحافظ على ما تبقى له من قرّاء، عليه أن يخترع أدوات أكثر متانة، تُبقيه واقفًا على قدميه. أنا لست ضد التطور الإبداعي، واستحداث أنماط جديدة من الكتابة، أو الفن كلما صدئت الأنماط القديمة، أو غفت واحتاجت إلى صدمات لإيقاظها، لكني ضد الولادة المبكرة للأنماط المستحدثة، أو أن تولد الأشياء ميتة. ولعل هناك من يكتب مثل هذه الومضات ولكن بحرفية، وبعدد أسطر تصنع حكاية ببدايتها ونهايتها، وما تريد إيصاله للقارئ، مثل ما يقدمه صديقنا صلاح سر الختم، في قصصه القصيرة جدًا، وهو في الأصل قاص وروائي متمكن، وأيضًا آخرون كتبوا القصة بنمطها المعروف، وجربوا في هذا النمط الجديد. كتبت لصاحب الرسائل مرة: رجاء أن تعفيني من

تلك الكوابيس، فلم أجد فيها ما يشجعني على الاستمرار في تلقيها، وومضتك عن البرتقالة التي أرادت أن تصبح تفاحة وأصيبت بجلطة، أزعجتني كثيرًا. كان الرد مجموعة جديدة، تبعتها أخريات، وهكذا يستمر بريدي في التلقي ولا يبدو أن ثمة حل ممكن. لكن دائمًا توجد أشياء مشرقة، أعني أن كل موضوع في الدنيا مثلما يملك سلبيات كثيرة، يمكن أن يملك إيجابيات أيضًا، وهكذا وأنا أكتب رواية جديدة، جاءتني راكضةً شخصية كاتب قصة قصيرة جدًا، لتحتل مساحة لا بأس بها من النص، وفي اعتقادي أنها من الشخصيات التي كتبتها بمتعة. وطبعًا لم تأت تلك الشخصية من المجهول، ولكن من البريد الإلكتروني الذي يتلقى نتاجها الكابوسي يوميًا منذ ما يقرب من عام.

استفتاء

لفت نظري مرةً على موقع الجزيرة نت، في صفحة الثقافة والفن سؤال مطروح للاستفتاء، وهو: «هل تعتقد أن المهرجانات تساهم في تثقيف المواطن العربي؟» حقيقة لم يقل السؤال، ما هي تلك المهرجانات، لكن ما دام في الأمر تثقيف ما، فهو يقصد المهرجانات الثقافية بلا شك، ومعروف أن تلك المهرجانات متنوعة، وتتدرج تحتها بحسب الاعتقادات السائدة، أنماط من الثقافة، قد لا تخطر على البال قط.. وقد لاحظت أن ثمة برامج في القنوات التلفزيونية يطلق عليها برامج ثقافية، ولا تبث سوى الغناء، والذي هو موجود بالطبع في تلك القنوات باستمرار سواء أن خصصت له برامج أم لا.. أيضًا تعتبر برامج الطبخ ثقافة، ومباريات كرة القدم، والمصارعة الحرة، ثقافة، وربما جيء في برنامج ثقافي خاص بالآداب والفنون، بساحر غريب الأطوار، يستطيع أن يختفي ويعود، ويصنع المعجزات أمام المتفرج. المهم أن كلمة الثقافة كما قلت، كلمة مندحرة، وضعيفة الشخصية في هذا الزمان، ولولا أن عددًا من الموبوئين بحب الكتابة والقراءة، ما زالوا يستطيعون أن يحملوا لقب: مثقفين، لأصبحت تلك الكلمة مملوكة كلية، لنشاطات أخرى في الحياة، لا علاقة لها بالتثقيف.

الآن، ما هي الثقافة الحقيقية في نظري؟ أنا لا أعترض على الركض وراء المعرفة، وهو حتمًا يؤدي إلى ثقافة ما، فتعلُّم العزف على آلة موسيقية، أو إجادة النوتة الموسيقية نفسها، معرفة تؤدي إلى ثقافة، لكن الغناء الذي يقوم بأدائه كل من هب ودب، بلا خلفية سوى صوت جميل، و مستمعين مستعدين لتصنيف ذلك المغني نجمًا من أول يوم في ظهوره أمام الناس، لا يمكن أن يكون معرفة ولا ثقافة.. هنا لم يسع أحد لامتلاك أدوات جديدة، لم يسع لتطوير أدوات يملكها، فقط استخدام أدوات مملوكة عنده أصلًا بلا زيادة ولا نقصان، وإذا ما سئل هذا الذي يعتبر مثقفًا، ويلقب بالأستاذ عن أبسط قوانين الموسيقى، أو تاريخ العزف والغناء لما أجاب، ولكن يمكن أن يجيب على أسئلة كهذه أي مثقف عادي، لن يكون نجمًا في يوم من الأيام. أعود لسؤال الجزيرة نت، وأعتبره كما قلت مختصًّا بمهرجانات الثقافة الحقيقية، مثل الندوات المقامة هنا وهناك لمناقشة عمل روائي صدر لكاتب ما، أو مجموعة شعرية أو قصصية، أو أمسية شعرية يحييها شعراء يملكون اللون والطعم ، أيضًا معارض الكتب التي تقام في كل بلد عربي تقريبًا، كل عام، وعروض الباليه والفلكلور، والمسرح، وغيرها، ثم المهرجانات الصغيرة التي تقام في صالونات خاصة ويحضرها الصفوة في العادة. أعتقد أن الأمر ليس مبشرًا كثيرًا في مسألة التثقيف هذه، لكنه حفر لا بأس به، يحتاج إلى حفر أعمق، وأعمق من أجل غرس الثقافة في أقصى بؤرة في الذهن. نعم المهرجانات تُجدي إلى حدٍّ

مـا، وسـتُجدي أكـثر لـو صاحبـت تلـك المهرجانـات الأدبيـة، فعاليـات أخـرى، ذات روح جاذبـة، مثـل أن يقـدم نـص مـا عـلى شـكل كتـاب ومـسرح، في نفـس الوقـت. في نهايـة العـام المـاضي وبدايـة العـام الحـالي، شـاركت في عدة معـارض للكتب في تونـس والجزائـر والسـعودية وقطـر، تحدثـت في بعضهـا، وكنـت زائـرًا عاديًـا في البعـض الآخـر، كنـت في الحقيقـة أتلمـس انتبـاه النـاس وأنـا أقـرأ مداخـلاتي، وأعـرف مـن نـوع الأسـئلة الـتي تطـرح في نهايـة المداخلـة، إن كان مـن سـأل قـد غـرق فعـلًا في الموضـوع، أم هـي مجاملـة لضيـف مـا في بلـده، يـأتي لحضـور مداخلتـه ويسـأله. وأعـترف حقيقـة أن معظـم الذيـن يحـضرون ويجلسـون صامتـين في قاعـات فعاليـات معـارض الكتـب، يأتـون عـن قصـد وإصرار، بغـرض الاسـتفادة، حقيقـة الحضـور ليـس كثيفًـا، بمعـنى أنـك لـن تجـد تزاحمًـا وتضاربًـا بالأكتـاف وصياحًـا، كمـا لـو كان الأمـر ذهابًـا لحضـور مبـاراة كـرة قـدم، أو حفـلًا غنائيًـا لنجـم ذائـع الصيـت، لكـن عـلى قلـة ذلـك الجمهـور، يحـس المحـاضر بروعـة التجربـة وأن ثمـة شـتلة مـا الآن تغـرس في تربـة الذهـن وسـتثمر ذات يـوم. مـن معـارض الكتـب الـتي لا تُـنسى، معـرض الريـاض الـذي حضرتـه أخـيرًا للمـرة الأولى، وكنـت أسـمع عنـه مـن قبل، أسـمع عـن زخمـه وإبداعـه في توفـير أكـبر جمهـور مـن القـراء، يعشـقون الأدب والفكـر، ويحتفـون بالكتـاب بـكل أنـواع الاحتفـاء. شـاركت في ذلـك المهرجـان أو العُـرس الكبـير كمـا أسميه، بمداخلـة عـن دور الروايـة في منظمـات المجتمـع المـدني، بصحبـة أسـاتذة متمكنـين، وكانـت نـدوة ناجحـة فعـلًا حضرهـا جمهـور لا

بأس به، بالنسبة لجمهور الندوات، وكنت مرة دخلت لأحضر ندوة في معرض الشارقة للكتاب، وعثرت على المحاضر، يلقي مداخلته على المصور، ولا شخص آخر. المهم أن تلك الندوة وما تلاها من أسئلة واعية، بينت أن المهرجانات الثقافية يمكن أن تُجدي. بالنسبة لمعرض كتاب الرياض نفسه، يبدو الأمر بالنسبة لي غير قابل للتصديق، الجمهور أكثر مما يمكن أن يتوقعه أي زائر حديث للمعرض، والشراء مكثف وواع جدًا وأرى الناس يسألون عن كتب بعينها من روايات ودواوين شعر وفلسفة وتاريخ، وليس الكتب الرائجة المعروفة في كل معارض الكتب. كان ثمة تميز حقيقة، وتميز آخر، أن عددًا كبيرًا من القراء، يقرأون عادة في مجموعات، وبالتالي من يعثر على كتاب مهم في نظره، يشتري منه عدة نسخ لأصدقاء آخرين يشاركونه الهم القرائي. التقيت بكثيرين وجدتهم يعرفون نتاجي، وعرفت بعضهم لأن وسائل التواصل الاجتماعي أتاحت للناس أن يعرفوا بعضهم بسهولة، وأن يتبادلوا الخبرات في كل المجالات، وكانت الحصيلة أن عدت بمؤلفات قيمة لمبدعين شباب من السعودية، وانطباع مبهج أن الثقافة بخير. إذًا السؤال له إجابة عندي، ربما تتفق أو تختلف مع إجابات أخرى، لآخرين قد يشاركون في الاستفتاء.

اكتشاف الغامض

منذ سنوات وأثناء قراءاتي المكثفة، التي تقلصت الآن مع الأسف، بفعل الانشغال الشديد، تعلّقت بكتابات المجتمعات البدائية أو لنقُل المجتمعات التي كانت تحتفظ بنقائها إلى عهد قريب، ولم تستفزها المدنية، وتعدل حيواتها وأمزجتها بعد. قرأت روايات عن الطوارق، لكاتب أمريكي يبدو أنه مغرم بتلك الأجواء، لكني لم أحس بأنه أجاد كثيرًا، هي محاولات لإقحام البداوة وتقاليدها في نصوص ليست عفوية في اعتقادي الخاص ولكن قد خطط لها بصبر. ولأن الكاتب الليبي إبراهيم الكوني، من الذين كتبوا الصحراء بحرفية، وفهم حقيقي وعميق، فقد تعلقت بكتاباته تلك الأيام، تعلقًا شديدًا. قرأت «خريف الدرويش»، و«المجوس»، و«التبر»، و«نزيف الحجر»، وعشرات غيرها من الروايات التي كتبها إبراهيم بانتظام، وخرجت أشبه بأخوات يحملن نفس الجينات والملامح لكن يختلفن في زمن الولادة فقط. كنت كما يبدو شغوفًا باكتشاف صحراء غير التي أعرفها، وتركد في خيالي، اكتشاف ما وراء تلك التلال والكثبان، وذلك القحط الذي كنت أراه جليًا في كل رحلة أعبر بها صحراء ما، راكبًا قطارًا أو عربةً، وكنت من سكان شرق السودان حيث الصحراء ممتدة وقاحلة، لا

تبدو لي فيها رائحة بشر أو حتى شجرة تتنفس. الكوني قدم لي الصحراء التي لا أعرفها حقيقة، واكتشفت أن وراء ذلك القحط الذي يبدو للعيون، حيوات كاملة تتشكل وتنمو، وأيضًا تستقر في بقعة ما، برغم الرحيل الظاهري. توجد ميثولوجيا فريدة، سَحَرَة ومتنبئون، وقراء بخت، وزعماء وتوابع وذلك المجتمع الذي تحكمه قوة التحمل، ولا يوجد فيه سكن لضعيف أو مستهلك، ولأنني لم أكن أتوقع أن أرى حبًّا جارفًا أو عواطف تندلق عبر تلك الرمال، فقد فوجئت بوجود نساء رقيقات، يعشقن ويتغزلن ويترنَّمن شعرًا، ورجال لهم ملامح أسطورية تتمدد في خيالات النساء. الماء له طعم آخر، الخبز المملح له طعم أسطوري، ومتابعة السحرة وهم يقرأون البخت ويستنفرون طاقتهم ليتوقعوا المطر والرياح، وفساد الأمزجة، تتبعها الكثير من الهواجس والأحلام، وحين يمرض أحد أو يموت لا تجد دعوعًا تبكيه أكثر من اللازم، فقط نظرات إلى البطون المتكورة التي ربما تأتي بحياة أخرى تعوض الفقد، لتستمر رحلة اللامكان.. إلى الأبد. أخيرًا قرأت «سلطانات الرمل»، للسورية لينا هويان الحسن، وهي أيضًا تندرج تحت أدب الصحراء غير المكتشف، وأدهشني ذلك الكم الكبير من المعلومات الذي تحمله الرواية. هنا رصد لصحراء أخرى، بعيدة عن صحراء الكوني، لكنها تشبهها في كثير من الطقوس، وربما لو استمرت الكاتبة في نبشها لنفس المكان، لخرجت بأشياء أخرى، لا تقل أهميةً عن تلك التي كتبتها. وفي عمل ثالث، قرأت منه، تجد صحراء الجزائر عند

الزيـواني حـاج الصديـق، وهـذا رجـل مـن الصحـراء وعاشـق لهـا، وأظنـه كتـب مـا تحملـه الرمـال، وتضمـه الأرض اليابسـة بكثير مـن الفن. سؤالي هنا: هـل مـا تـزال تلـك الحيوات الـتي قرأتهـا عـن الكـوني وغـيره مـن كتـاب الجيـل الجديـد، قائمـة إلى الآن أم اندثـرت بعـد أن تمـدن النـاس، وحـتى أولئـك الذيـن يقطنـون أطـراف المـدن، ومشـارف الصحـراء، صـاروا يعرفـون لغـة الحيـاة المتمدنـة، يركبـون السـيارات بأحـدث طرازاتهـا ويتسـوقون مـن المجمعـات والسـوبر ماركـت وربمـا عـثرت بينهـم عـلى مـن تعلـم وسـافر وعـاد؟ أعتقـد أن تلـك السـحرية الـتي قرأتهـا في مثـل تلـك الروايـات، هـي سـحرية إبداعيـة، اسـتدعاء الـتراث الـذي لا نعرفـه، ولا يعرفـه كمـا أظـن، حـتى أحفـاد مـن اخترعـوه وعاشـوه، إنهـا محـاولات إبداعيـة لوضعنـا في لوحـة المـاضي ولكـن بريشـة جديـدة، النسـق الـذي يغـص بالـدلالات ويحمـل في طيـه إشـارات ماكـرة. حقيقـة لا توجـد اليـوم حكايـات سـحرية، لا يوجـد غمـوض في الحيـاة اليوميـة، بحاجـة إلى مـن يفسـره.

تقديم الكتب

منذ عدة سنوات طلب مني أحد الأصدقاء، وكان قد جمع قصصًا قصيرة ظل يكتبها سنوات، في كتاب متوسط الحجم، أن أكتب له مقدمة لتلك المجموعة، أو على الأقل، عدة أسطر مختصرة على الغلاف الأخير للكتاب، كنوع من التزكية المشروعة، أو تقديم كاتب جديد لقارئ ربما صادف وعثر على الكتاب وأراد قراءته. لم أكن في الحقيقة مقتنعًا بتلك الفكرة، خاصة وأنني كنت في ذلك الوقت، وبالرغم من أنني كتبت كثيرًا في مشروعي لكني ما زلت أبحث له عن موضع وسط تجارب كثيرة ورائدة وبالتالي لا أملك تلك السطوة التي تشد قارئًا إلى كتاب، وأيضا لقناعتي الشديدة أن لا جدوى من كل ذلك في زمن أصبحت فيه الكتابة مرضًا ووباتًيا أصيب به معظم الناس، والقراءة إما غائبة تمامًا، وإما انتقائية، ترسخت عند عدة أسماء ولن تتركها بحثًا عن أسماء جديدة، إلا إذا جاءت متوجةً بجائزة من تلك الجوائز العديدة التي دخلت الكتابة العربية أخيرًا. وأصبحت أكبر صيتًا من كلمة لمؤلف على غلاف ربما تكون مجاملة أكثر منها رغبة في مناصرة الإبداع. في قراءاتي الكثيرة عبر سنوات طويلة، بعد أن نضجت وأدمنت زيارة المكتبات، وأيضًا طلب الكتب غير

المتوفرة، صادفت كتبًا كثيرة، مكتوب على أغلفتها كلام جاذب، بتوقيع لامع، لكن حين تصفحتها لم أجد ذلك المحتوى الإبداعي الذي وصف، على عكس أخرى، صدرت وأغلفتها عارية من التقديم، وكانت تضج إبداعًا وجنونًا. ليس معنى أن يكتب مبدع ناجح على غلاف كتاب ما لكاتب جديد، أنه يعطيه تأشيرة مرور لطريق القراءة، وليس معنى أن لا يكتب، أن يظل الكتاب مهجورًا لا يُطالعه أحد، وفي الوقت الحالي ومع تزايُد طرق الاتصال، ألغيت كثير من الطرق القديمة التقليدية، التي تروج بها السلع، وحلّت محلها طُرق جديدة، والكتاب سلعة كما نعرف، وقد كانت كلمة الغلاف، والدراسات النقدية التي تكتب بعد صدور الكتاب، من أكثر الطرق الدعائية المعروفة. المهم إنني كتبت لصديقي كلمة صغيرة على غلاف مجموعته وكانت مجموعة جيدة فعلًا، وفيها تلاحم مع الشعبي والأسطوري، وبها قصص ليست قصيرة جدًّا أو طويلة جدًّا، ولكن مُقنعة ومكتملة في رأيي. لكن مع الأسف مرت أكثر من خمس سنوات ولم أسمع أي صيت لتلك المجموعة، لم أسمع أن أحدًا قرأها أو ناقدًا تصدى لها، أو ناقشتها مجموعة من القراء في منتدى قرائي، وحتى صديقي الكاتب، لم يعد يكتب كما أظن، لأنني لم أسمع بإنتاج جديد له، وكأن حماسه قد فتر، أو كأن الإحباط استولى على بؤر الإبداع داخله، وأسكت فورانها. الآن بعد سنوات طويلة ما زلت أذكر بداية اشتغالي بالكتابة، أيام دراستي في مصر، حين حملت روايتي الأولى «كرمكول والحصانة

القروية»، وهي مخطوط، ذهبت بها إلى صديقنا الراحل محمد مستجاب الذي تعرفت إليه في مقاهي وسط البلد، من ضمن معظم مبدعي تلك الفترة الجميلة، ومنهم أصدقاء ما زالوا يلونون حياتي إلى الآن. كان محمد مستجاب كاتبًا كبيرًا، له ثقل جبل وعمق بحر، يقرأ كل شيء، ويتحدث في كل شيء، ويتذوق الكتابة جديدها وقديمها، ويستطيع أن يدرج حتى الحجارة الصلدة، في كتابة ساخرة لا يعرفها أحد غيره، ومَن منّا لم يستمتع بكتابه: التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ، أو سلسلة قصصه عن آل مستجاب. كان الكاتب العظيم، كريمًا معي حين وافق على قراءة مخطوطي، لكنه أعاده إليَّ بعد عدة أيام، ورفض أن يكتب حرفًا كتقديم لكتاب أحسه جديرًا بتقديم نفسه، كعمل أول قطعًا تتبعه أعمال أفضل، كما أخبرني. وحين صدر الكتاب بعد ذلك من دار نشر صغيرة، بلا تزكية ولا كلمة على الغلاف من أحد، كان مستجاب أول من كتب عنه، وأدخله في مقارنة مع رواية الأشياء تتداعى، للنيجيري العظيم تشينوا تشيبي، مما أذهلني حقيقةً، في زمن كانت مثل تلك الكلمات، هي العائد الوحيد الإيجابي لشقاء الكتابة. ثم كان ذلك الكرم المضاعف حين كان يشتري الكتاب، ويوزعه مجانًا للناس، ترويجًا له. بعد سنوات من ذلك وفي عام 1995 كتبت رواية صغيرة اسمها «سماء بلون الياقوت» وأيضًا وتحت إحساسي بأن لا أحد سيقرأها لو لم تُقدَّم بواسطة أحد ما، ظللت أطارد كاتبًا شهيرًا جدًّا عبر الهاتف والرسائل المباشرة، راجيًا منه

تقديمي، فلم يفعل بالرغم من أنه قرأ الرواية، ربما بسبب انشغاله، وربما لأسباب أجهلها، وصدر الكتاب بغلاف عار من أي كلمة، ومضى ولا أعرف إن كان قد قرأه أحد أم لا، لأنني لم أسمع بدراسة كُتبت عنه، أو نقاش دار حوله.

ما أردت قوله للذين أصابتهم عدوى الكتابة من الأجيال الجديدة، وتحتم عليهم أن يكتبوا طائعين أو مُجبرين، إن الأمر محزن للغاية، وذلك الدرب الذي لا بد أن يطرقه أحد في كل زمان، ليظل دربًا، بات الآن مهددًا بالحفر والمجاري، وأيضًا أمراض التوتر التي تقصر العمر، وبلا أي فائدة تجنى، حتى «الصيت» الذي كان يدفع بكثير من الهواة الأثرياء، لإنفاق آلاف الدولارات في طباعة أشعارهم أو رواياتهم، وتوزيعها مجانًا على الأصدقاء، ما عاد بالإمكان تحقيقه الآن، وسط مئات الآلاف من الكتب بمختلف أنواعها وأمزجتها، وهي تبحث عن قراء يلقون إليها بنظرة

عن الأخطاء في الإبداع

منذ أيام، وفي أي وقت للفراغ أجده، أحاول قراءة واحدة من الروايات المترجمة للعربية حديثًا، وكانت قد اشتهرت منذ فترة، بعد ترشيحها القوي لواحدة من الجوائز الغربية، ومن ثم انتشرت في جميع أنحاء العالم وبكل اللغات، ووصلت إلينا عربيًّا. الرواية كبيرة الحجم إلى حد ما، وتستوحي من التاريخ والأسطورة، وهي كتابة تناسب مزاجي الشخصي، وتجد قراء كثيرين، وأيضًا قد يعتبرها البعض كتابة مملة، ويفضلون عليها تلك الكتابات الخفيفة ذات الاتجاه المعاصر، والمسألة اختلاف في الأذواق والأمزجة كما نعلم. على أن القارئ المتعصب لنوع معين من الكتابة، يرى دائمًا أنه النوع الأمثل وعلى الآخرين الموافقة على ذلك حتى لو كانت وجهة النظر مختلفة، وقد جربت غيظي الشديد، حين أجد قارئًا يتحدث عن رواية: الأشياء تتداعى للعظيم تشينوا تشيبي، أو رواية: المخطوط القرمزي للإسباني أنطونيو غالا، مثلا، باستخفاف، وآراء أعتبرها غير منصفة، برغم المجهود الكبير الذي بذله الكاتبان، وذلك الكم الهائل من المعرفة الذي سكب في عدد من الصفحات، تعادل خزانة للكتب، وقس على ذلك، كثيرًا من الأعمال الأخرى لكتاب آخرين.

المسألة حقيقة ليست وقاحة بقدر ما هي اختلاف في الرأي، وميل معين لنوع من الكتابة من دون سواه. لا أريد أن أتحدث عن جو الرواية المترجمة التي قلت أنني غارق فيها، وربما أعود إليه لاحقًا، لكن أود الحديث هنا عما أزعجني في تلك الرواية، وكان من الواضح أنها مختلفة ودسمة، وتحمل معرفة أخرى جديدة علي. لقد فوجئت حقيقة بآلاف الأخطاء المتنوعة، من إملائية وطباعية ونحوية، وتحريرية، في صياغة الجمل، ولدرجة أنه يصبح من المستحيل إكمال كتاب كهذا برغم المتعة التي بداخله، وبرغم أن الترجمة تبدو جيدة، وتحمل كثيرًا من شاعرية الكاتب في لغته الأصلية. فليس من المعقول أن تحمل الصفحة الواحدة كل هذا العبء، وبالتالي، أنت تقرأ أعباء، تحاول التخلص منها أثناء القراءة، وفي وقت ضيق جدًّا وبالتالي، يصبح مجهود الاستيعاب، ومجهود تجميل الصفحات حتى تستوعب جيدا، إضافة غير محتملة للقارئ، وقطعًا سيترك الكتاب من دون أن يكمله. حقيقةً أنا لست من المتحمسين للتدقيق المبالغ فيه، في صناعة الإبداع، ولا من المؤيدين لانشغال المبدع في تجويد النحو والصرف وكيفية وضع علامات الترقيم، وما هو حرف العلة، والمعلول، وما شابه ذلك، رأيي أن يلم المبدع بأبسط قواعد اللغة التي يكتب بها، ثم يتولى الناشر عرض الكتاب على متخصص يقوم بمراجعته، قبل النشر، وبالتالي يحصل القارئ على متعة نظيفة بلا أي خدوش مزعجة، ولا كساح في إيقاف الجمل على ساقيها، وأيضًا ينفد الكاتب من سهام

النقد المتربصة به، والتي قد لا تجد شيئًا في كتابته سوى الأخطاء، ومن ثم تسنها سهامًا توجهها إليه. وأعترف بأنني من الذين يخطئون بدرجة ما أثناء الكتابة، لكن ليست تلك الأخطاء التي تنصب فاعلًا بلا وجه حق، أو تمرغ مفعولًا بجره في التراب، ودائمًا يستحضرني قول العظيم ماركيز، عن هذه المسألة، بأنه لم يكن معنيًّا يومًا بالانتباه للأخطاء في كتابته، لأن هناك من يقوِّمها قبل أن يراها القارئ. إذًا هناك كتاب مهم، أفلت من ذلك المقوِّم المفترض أن يكون واسطة خير بين الكاتب والقارئ، وفي هذه الحالة أقول بين المترجم والقارئ، والترجمة أيضًا نوع متفرد من الإبداع وليست حرفة ميكانيكية، تؤدى بلا مشاعر كما يعتقد البعض، فالمترجم الناجح هو الذي يمنحك نصًّا كأنه كتبه هو بلغتك، وفي نفس الوقت يحس الكاتب الأصلي بأن كتابه لم يُسرق فنيًّا، ولكن تم تجديد مظهره بقميص جديد يلائم البيئة التي نقل إليها. وهذا ما نجده عند مترجمين مجيدين بعضهم يترجم للعربية مثل صالح علماني، وطلعت شاهين، وعبد المقصود عبد الكريم ومحمد عيد إبراهيم، وبعضهم يترجم للغات أخرى مثل جوناثان رايت ووليام هتشنز، ورافائيل أورتيجا، وهمفري ديفيس واكزافيه لوفان. أقول بأنني كنت إذًا سأتجاهل بعض الأخطاء وأمضي حثيثًا في النص حتى أكمله، لو كانت تلك الأخطاء (بعضًا)، ولكن أن يكون الخطأ هو الأساس، والصواب هو الاستثناء، ذلك ما يقمع رؤيتي، ورؤية ماركيز قبلي، ويجعلني أتساءل حقيقة: أين الناشر العربي من كل هذا؟ ولماذا يوجد في الغرب

محـرر، ينشـغل بمطـاردة النواقـص في أعمـال الكتـاب، بغيـة إكمالهـا، ولا يوجـد عندنـا سـوى عـدد قليل مـن دور النـشر التي تتحقـق مـن أهليـة النـص، قبـل تصديـره للنـاس؟ أيضًـا مهنـة المدقـق هـذه، هـل كل مـن يمتهنهـا مؤهـل لهـا، أم هـي أيضًـا مثـل مهنـة الكتابـة، تضـج بشـاغليها بـلا مقـدرات حقيقيـة؟ أعتقـد جازمًـا إن هـذه الجمـل مثـلًا، لا يمكـن أن تكـون مـرت عـلى مدقـق، وإن مـرت فـلا بـد مـن مقاضاتـه: أرسـل نظـرة عينـاه إلى عيناهـا كان الرجـل طويـل وأنيـق.. يمتلـك بيـت واسـع لقـد كنـت في بداياتي، أرسـل نصـوصي إلى مدققـين محترمـين أثـق فيهـم، مـن أجـل تنقيتهـا وملاحظـة مـا يعكـر صفـو القـراءة فيهـا، ثـم أصبحـت دور النـشر الـتي أتعامـل معهـا، تتـولى هـذه المهمـة، وبالرغـم مـن ذلـك أعـثر عـلى أخطـاء أحيانًـا، وفي واحـدة مـن رواياتي، كانـت ثمـة أخطـاء مؤلمـة لكـن ليسـت بـأي حـال مـن الأحـوال، تشـبه تلـك الـتي ذكرتهـا عـن نظـرة العينـين المرفوعـة بـلا وجـه حـق، والطـوّل والأناقـة حـين ظلمـا نحويًـا. أعـود لأردد: إن العمـل الإبداعي، في كل المجـالات، ليـس مـن المطلـوب أو مـن المفـترض محاكمتـه بصرامـة، ولكـن ليـس مـن العـدل أيضًـا تركـه بـلا سـؤال، إن تجـاوز الحـد المعقـول للحماقـات وأصبـح يتجـول عاريًـا.

السينما أداة ترويج للرواية

شاهدت منذ فترة، الفيلم السينمائي «حياة باي»، المأخوذ عن رواية الكاتب الكندي يان مارتل، التي تحمل نفس الاسم، وكانت قد حصلت على جائزة «مان بوكر» البريطانية منذ عدة أعوام، وترجمت إلى لغات كثيرة كعادة روايات البوكر، منها اللغة العربية بواسطة دار الجمل، لكنها لم توزع جيدًا بحسب ما ذكر لي الناشر ذات يوم، كون يان مارتل، لم يكن من الكتاب الغربيين القدامى الذين يعرفهم القراء العرب، وأيضًا لأن الكثيرين لم يسمعوا بجائزة مان بوكر، إحدى أهم الجوائز الأدبية التي ابتكرها الغرب، وجاءتنا منها نسخة عربية، أضحت أيضًا أهم جائزة عربية، في هذا المجال. حقيقة كنت قرأت رواية «حياة باي» منذ عامين تقريبًا، وأعترف بأنني قرأتها بصعوبة، ذلك إن الدخول إلى النص الحي الذي يشد القارئ ويحبس أنفاسه، ويجعله يركض بين السطور لمعرفة ما سيحدث، تطلب صفحات طويلة من الوصف الروتيني الرتيب لحديقة الحيوان الهندية، التي يملكها والد الراوي، وكيف كانوا يدخلونها ويخرجون منها وأي الحيوانات توجد فيها، مع وصف لكل حيوان وطريقة حياته، ثم بعد ذلك تتعرض للنمر الذي سيشارك البطل قارب نجاة في

محيط هادر، النمر مستر باركر كما يسمى، وكان قد أطلق عليه هذا الاسم لأن حارسًا للحديقة وهو صاحب الاسم الحقيقي، وصل في نفس توقيت وصول النمر، ووضع اسمه خطأ على قفصه. قلت أنني قرأت تلك الصفحات الأولى، التي لم تكن قليلة، بشيء من التذمر، أتعجل الوصول إلى نص نابض أمسك به، من أجل متعة القراءة وحين حدث ذلك أخيرًا، أصبح العمل طاعما بشكل لا يصدق، وأصبح من غير الممكن، ترك الرواية لحظة واحدة، من دون إكمالها، وهكذا قصة رائعة عن الإيمان بالله، والتمسك بالحياة برغم الإحساس بضياعها، والوثوق بأن النجاة على مقربة، وهي في الحقيقة، أبعد ما تكون. لقد أمسك الكاتب الكندي بما اعتبرته موضوعًا حيويًّا، كيف تصف الإنسان في قمة ذعره؟ كيف تصنع له تصرفات، وكيف ستكون تلك التصرفات؟ أعتقد أن الكاتب أجاد فعلًا، خاصة أن الرواية اعتمدت على الحوار المرعوب بين الصبي المتمسك بقارب النجاة، والنمر الذي يسكن معه هذا القارب. الصبي يعتمد على ما شاهده من كيفية ترويض للحيوان، في حديقة أبيه قبل أن يغلقها ويقرر الرحيل بحيواناته، وتغرق الباخرة التي تقل الجميع، ويحاول أن ينجح في ترويض النمر مستر باركر، والنمر لا يبدو مسالِمًا، وفي نفس الوقت لا يبدو عدوانيًّا جدًّا، وهكذا حوار الرعب يستمر أيامًا وليالي، إلى أن ينتهي بنجاة الصبي. حين كنت أقرأ تلك الرواية، سيطر علي إحساس قوي، إنها تصلح عملًا سينمائيًا ضخمًا يعتمد على تقنيات الإثارة الحديثة، فالحوار المرعوب الذي ذكرته،

ومهما تخيله القارئ أثناء القراءة، لا يمكن أن يعطي نفس قوته وسحره كما لو شوهد سينمائيًا بتقنية بث الرعب عبر الصوت والصورة، كنت حقيقة أتوقع أن يلتقط أحدهم تلك الرواية، ويحولها إلى فيلم، خاصة أن فكرة الإيمان، وطريقة اتباعه والتمسك به، تعد موضوعًا جاذبًا وحيويًا، تمت معالجته كثيرًا، وبطرق مختلفة، وحين سمعت بعد ذلك أنها حولت إلى فيلم، لم أفاجأ طبعًا.. كنت سعيدًا بأنني فكرت بطريقة صحيحة. حقيقة كان الفيلم رائعًا بالفعل، وبدا لي قد خدم النص الأدبي جيدًا ولم يشوهه كما يحدث أحيانًا، حين تنتج الروايات الناجحة سينمائيًا. على العكس كانت المؤثرات الصوتية القوية، مبعث نجاح باهر وكبير لحوار الرعب بين الصبي والنمر مستر باركر. بعد رواج الفيلم بفترة، تابعت وبدافع الفضول أرقام توزيع رواية حياة باي، في نسختها الأصلية، وكانت قد ارتفعت بشكل كبير، كما أنني شاهدت طبعة ثانية بالعربية، للرواية التي ظلت أربع سنوات، أي من تاريخ نشرها باللغة العربية، كاسدة بلا قراء كثر. أردت القول، إن تحويل العمل الروائي، إلى دراما سينمائية أو تلفزيونية، ليس دائمًا خيانة له، كما يروج البعض، فالكاتب حين يطرح نصًا، هو يطرح فكرة، وأسلوبًا، وشخصيات متنوعة، ذلك الزخم يعثر على بعض المتذوقين لكنه لا يشد الدنيا كلها، وحين يأتي كاتب سيناريو أو مخرج سينمائي، ويحول ذلك الطرح المكتوب إلى طرح مسموع، أو مرئي، هو يقدم أسلوبًا آخر، سيشد متذوقين من نوع آخر، وهم غالبية

كما نعرف، فليس الكل يذهب للمكتبات ويقتني الكتب، لكن الجميع، يمكن بسهولة أن يشاهدوا عملًا دراميًّا وهم جالسون في بيوتهم. ولأن الدراما المرئية، غير الكتابة الأدبية، فلا بد من تغييرات في الرواية، تتناسب مع الطرح الجديد، وهذا ينبغي أن لا يغضب الكاتب، حين يرضى هو بتحويل عمله إلى دراما مرئية. حقيقة قرأت روايات عديدة، وشاهدتها بعد ذلك أفلامًا، ولم أحس بأن الأفلام سرقت عفة تلك النصوص أو انتهكتها، كنت أحس بأنها أضافت للنص المكتوب، لكن بطريقة أخرى، وفي العام الماضي، حول نص روائي لي إلى دراما إذاعية، وكنت سعيدًا وأنا أستمع لحلقاتها، برغم الاختلاف الكبير مع النص المكتوب.

الشيء المهم في كل ذلك، هو الفضول الذي ينتاب البعض لقراءة النص الروائي، ومقارنته بالفيلم بعد مشاهدته، وهو فضول كبير ولا يُستهان به، وبالتالي توزيع جيد للكتاب، وهو ما حدث مع حياة باي وروايات أخرى، أنتجت سينمائيًّا. السينما أداة ترويج مخيف، هذا واقع لا بد من الرضوخ له بجدية، والعمل الروائي الذي تلتقطه السينما سينجح ورقيا بلا أي شك، حين يلتقط المشاهدين الذين شاهدوه مرئيًّا.

الرواية الواحدة

قرأت في إحدى الصحف، تحقيقا مع عدد من الكتاب، ممن كتبوا رواية واحدة إما كعمل إبداعي مفرد لم تسبقه أي إرهاصات، أو وسط عدة مجاميع من الشعر أو القصة، وقد تباينت الآراء حول هذه الظاهرة، كل يبين السبب فيها كما يراه، فمنهم من تحدث عن الانشغالات الحياتية التي تمنع الإبداع وتقف له بالمرصاد، ومنهم من تحدث عن الإحباطات التي لازمت ظهور روايته الأولى، من إهمال ولامبالاة من قبل النقاد ودارسي الأدب، ومن ثَم لم يكن ثمة دافع كبير أو صغير، لتكرار التجربة في عمل آخر، وأيضًا من ذكر أسباب أخرى، لعدم تكرار تجربته. حقيقة كتابة عمل إبداعي واحد، سواء أن كان رواية أو مسرحية، أو قصة طويلة، والتوقف بعده، أو ما أسميه الهروب من سكة الأدب عند من لم يكونوا شعراء أو قصاصين، من قبل، ليست ظاهرة جديدة، وإنما تتكرر دائمًا في الأجيال الكتابية المتعاقبة، وغالبًا ما تكون هناك محاولات من قبل الكاتب قبل أن ينشر عمله الوحيد، أي أنه ليس العمل الأول، وإنما العمل الناضج الذي سيؤهله للظهور كاتبًا محترمًا، سيبقى ما أنجزه عالقًا بأذهان الناس لفترة طويلة، ولا يهم إن كتب بعده شيئًا أو لم يكتب، وترد إلى ذهني دائمًا رواية

مثل: الفهد للإيطالي لومبيدوزا، أو البركان للأمريكي مالكولم لاوري، وكلاهما من الروايات التي وضعت أصحابها في مكانة متقدمة من سماء الأدب، لكنهما لم يكتبا غيرها. ولا أحد يدري ما هي الأسباب الحقيقية لذلك، لكن غالبًا كانت لدى الكاتبين، وغيرهما من الكتاب المماثلين، شحنات مزعجة، تمثل تجارب حياتية، معينة، أو مواقف قاهرة مرًّا بها، أجبرتهم على الكتابة، ولم يعد ثمة ما يُقال.

أذكر في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، حين كنت أبحث عن ناشر لروايتي الأولى: كرمكول والحصانة القروية، وأطرق كل الأبواب التي أظنها متاحة، بلا جدوى، أن أهداني أحد الناشرين رواية ضخمة، قال لي إن عاملًا بسيطًا قام بكتابتها، مستخدما أبسط طريقة للكتابة، وأبسط لغة، هي اللغة التي يستخدمها في حياته اليومية. كانت الرواية مشحونة أيدولوجيًّا كما أذكر، لكنها بيَّنت بلا شك، معاناة أولئك العمَّال البسطاء، في البحث عن لقمة العيش، وفي الحفاظ عليها حين يجدونها، برغم كل ما يواجههم. إذًا ما كتبه العامل، كانت تجربة جديرة بكتابتها، وكان ذلك في الثمانينيات من القرن الماضي، ولا نستطيع أن نطبق نموذجه على حاضرنا، بعد أن أصبحت الرواية تكتب بسبب وبلا سبب، وبلا أي تجربة حياتية أو قرائية من البعض، ولدرجة أن هناك من يسألني دائمًا عن كيفية كتابة رواية، من دون مشقة الاطلاع على قواعد الكتابة، أو قراءة من سبقه من الكتَّاب، أي أن الكتابة أصبحت من ضعف

الشخصية، بحيث لا ترهب أحدًا ولا يرتبك أحد حين يطرق بابها.

أعود إلى كتابة وسط المجاميع الشعرية، أو القصصية، وفي ذهني كثيرون مارسوا تلك اللعبة، حيث نجح بعضهم وأخفق البعض الآخر، سأتحدث عن نموذجين، أعتبرهما ناجحين، وما قدماه يعتبر أدبًا حقيقيًا راقيًا. لقد كتب المكسيكي خوان رولفو، عددًا من المجموعات القصصية، غير أنه أصدر في عام 1955، روايته الوحيدة: بدرو بارامو، والتي نقلها إلينا كالعادة، ناقل الروائع «صالح علماني»، وقرأتها في طبعة لدار أثر السعودية. بدرو بارامو رواية ساحرة من حيث لغتها وأجوائها، وحديثها المدهش عن عالم الأرواح، بلا أي إحساس من القارئ، إنه يقرأ غرابة، وفي تلك القرية المقفرة التي يطرقها الراوي بحثًا عن والده الذي لا يعرفه، يفاجأ بعالم الموتى، عالم الأرواح الساكنة المطمئنة، والتائهة المعذبة، وهكذا رواية جيدة لكاتب القصة القصيرة، قطعًا أغنته عن كتابة غيرها. النموذج الآخر، حين تقرأ رواية «حيث لا تسقط الأمطار»، لشاعر راسخ منذ زمن طويل مثل أمجد ناصر. رواية من لحم الفنتازيا، حكيت بأسلوب ناعم سلس، وتحدثت عن عالمنا اليوم بكثير من النزاهة الإبداعية والفن، ولأنها من شاعر، فتجد فيها كثيرًا من صور الشعر. رواية أمجد لم تفاجئني، ذلك أن أمجد ناصر، كتب السرد من قبل، ولديه كتاب عن المدن أعتبره من أفضل ما كتب في ذلك

الموضوع، ويمكن أن يفاجئنا في أي لحظة برواية جديدة، كونه دخل سكة الرواية، ويملك خبرات كتابتها كلها. ولا أنسى أن أذكر هنا بكثير من الاحترام رواية: الشمندورة للكاتب المصري النوبي: محمد خليل قاسم، التي قرأتها منذ سنوات طويلة، ولم أعد أذكر محتواها جيدًا، لكن أذكر تماما، إنها كانت رواية وحيدة، ومميزة.. رواية بيئة لم تكن معروفة جيدًا قبلها.

قلت إن المسألة في كتابة، غالبًا، رصد تجربة ما، ولا تجارب بعدها تستحق عناء الجلوس إلى سجن الكتابة، لكن ماذا لو أن هناك الكثير مما يستحق الكتابة، ولا وقت لكتابته؟ هذا يحدث أيضًا، ويحدث بكثرة في عالمنا العربي، حيث الحياة شاقة فعلًا، والعيش المفترض أنه حق، يصبح عسيرًا حتى للذين تعلموا وتثقفوا، وعملوا في وظائف. هنا يوجد موهوبون كثيرون، سيكتبون عملًا واحدًا، وينبشون في الوقت المتبقي من وقت مطاردة لقمة العيش، ليكتبوا عملًا آخر، ولا يستطيعون. سنقرأ روايات مدهشة، نتمنى أن تتكرر، ولا تتكرر مع الأسف. عموما المسألة تحتاج لنقاش طويل، ولعلي أكتب عنها يومًا بتفصيل أكثر، فقط ما أردت قوله، إن الرواية الوحيدة التي تأتي بعد خبرات في مجالات إبداعية أخرى، دائمًا مكتملة فنيًا، وذات أبعاد جمالية نادرة.

موت بهنس..
رسالةُ إحباطٍ كبرى

لعل موت الرسام والكاتب والشاعر السوداني «محمد حسين بهنس»، في أحد ميادين القاهرة الشهيرة، وبطريقة مؤسفة ومؤلمة حقًا، يُعيد إلى الأذهان تلك الأسئلة القديمة عن ماهية الإبداع، وهل هو وظيفة حقًّا، تستحق أن تمنح ما يمنح للوظائف عادة، من راتب ثابت، وحياة كريمة، وتأمين صحي، ومعاش تقاعدي، إن اختل المبدع نفسيًّا لأي ظرف أو عجز عن مواصلة إبداعه؟

في الحقيقة لا أود الخوض في ضروب الإبداع المختلفة، وهي كثيرة وتشتمل على كل ما ينتجه الإنسان من ذهنه ومخيلته، إن أصيب باللوثة أو الجرثومة التي تسمى موهبة، خاصة إن مجالًا مثل الغناء مثلًا، هو استثمار للوثة، وغير مستوفي لشروط الضياع في أغلب الأحيان، لكني سأكتفي بمجال الكتابة، باعتبار أن بهنس كان كاتبًا أيضًا، وله رواية وحيدة اسمها راحيل، لم أطلع عليها حقيقة، وإن كنت قد سمعت عنها الكثير حتى قبل هذه الفاجعة.

تعريفي الشخصي للكتابة سواء كانت نثرًا أو شعرًا،

خاصـة في عالمنـا العـربي، هـي أنهـا إضافـة شـاقة للحيـاة، يضطلـع بهـا البعـض مـن دون الآخريـن، وتضيـف إلى أعبـاء الحيـاة كثـيرًا، فالكاتـب يكتشـف تلـك المعضلـة باكـرًا، ربمـا في مراحلـه التعليميـة الأولى، وخاصـة في حصـص الإنشـاء، وجرائـد الحائـط المدرسـية، حـين يكتـب قصيـدة، أو موضوعًـا مميـزًا، ودائمًـا مـا يوجـد مـدرس للغـة العربيـة، يهتـم بتلـك المواضيـع، يعرضهـا للتلاميـذ الآخريـن كنمـاذج يجـب دراسـتها واتباعهـا. هـو يفعـل مـا يظنـه تشـجيعًا للموهبـة لتنمـو وتحلـق بعيـدًا في المسـتقبل، ومـن دون أن يشـعر، يسـهل الضيـاع لطالـب ربمـا كان سـيتخلى عـن تلـك المشـقة الاسـتثنائية، لـو لـم يتـم الإطـراء، وبالتـالي يصبـح المسـتقبل موعـودًا بكاتـب يتعلـم ليحصـل عـلى وظيفـة وأسرة، وحيـاة كريمـة، أسـوة بغـير الكتـاب مـن زملائـه، وأيضًـا يكتـب لأن الكتابـة تسـكن الآن دمـه ولـن تتركـه في أي يـوم مـن الأيـام.

هـو يحـاول السـير طبيعيًـا، وتجعـل الكتابـة سـيره مترنِّحًـا إلى حـدٍّ مـا، ولأن لا مجـال في وطننـا العـربي ليصبـح الكاتـب موظفًـا في درجـة وظيفيـة اسـمها درجـة الكتابـة، كمـا يحـدث في الغـرب، حـين ينتـج أحدهـم عمـلًا إبداعيًـا مقـدرًا، يكفيـه عائـده المـادي ليعيـش زمنًـا طويـلًا بـلا مشـقة، يظـل هـذا التمـزق ويـزداد العـبء بمـا قـد يحصـل عليـه مـن شـهرة، وقـراء، بـلا عائـد مـادي، وتتراكـم الأسـئلة اليوميـة المحبطـة: مـا جـدوى الكتابـة إذًا؟

بالطبـع لا إجابـة متوفـرة، ولا حـلَّ قـد يلـوح في أي أفـق

تختاره مُخيلة الكاتب لتتأرجح فيه.

إذًا على الكاتب أن يعمل موظفًا ما دام قادرًا على ذلك، أن ينسى أنه مبدع تميز عن غيره من زملاء العمل بلوثة الإبداع الشاقة، أن يوقع على دفتر الحضور والانصراف، يقضي ساعات العمل بعيدًا عن أي تطرف إبداعي، ويتقبل ملاحظات رئيسه بسعة صدر، لأن الوظيفة مهما كانت بعيدة عن الطموح، هي في النهاية ما يستر الحال في الحياة. وأذكر أن بعض الهيئات الحكومية في البلاد العربية، وفي بادرات جيدة، كانت توظف كتابًا وشعراء، في وظائف اسمية، من أجل أن يعيشوا، فقط عليهم الحضور والتوقيع وتسيير بعض الأشغال البسيطة، وحتى هذه رفضها البعض بحجة أنهم مبدعون وليسوا موظفين، فتركوها للتسكُّع في المقاهي وممارسة الإبداع الحر كما يتصورونه. بينما استطاع البعض أن يتغلبوا على التطرف في التفكير وعاشوا وكتبوا في نفس الوقت. وقد ذكر المرحوم الطيب صالح مرة في حوار، إنه كان يعمل حتى سن التقاعد، وحتى بعد سن التقاعد لأن الوظيفة هي الأساس.

لكن ماذا لو كان المبدع أو الكاتب غير قادر على العمل بسبب ظروف نفسية، أو عجز جسدي؟

هنا تبدأ المشكلة، ويطرح السؤال الكبير: من يهتم بمبدع كهذا؟ من يرصف له دروب حياته التي اختلفت رغمًا عنه، ويقيه التشرد والبؤس والموت وحيدًا ويائسًا كما حدث للفنان بهنس؟

أعتقد أنه هنا يأتي واجب الدولة التي ينتمي إليها المبدع، أن يصبح لوزارات الثقافة دور إنساني بعيد عن تلك الأدوار الروتينية التي لا تضيف للثقافة كثيرًا أو قليلًا: مهرجانات مكررة، اجتماعات بلا نتائج، هكذا.. أن تفعل أدوار اتحادات الكتَّاب المنتشرة في كل بلد، وتمنح لها ميزانيات معينة لحماية المبدعين من التشرد والبؤس، أن تصبح السفارات في الخارج، صدورًا للاحتضان، في زمن كثرت فيه الهجرات، ومحاولات اللجوء لما يظنه المبدع حياة أفضل، لا مضادات صادة، وأن تصبح الأوطان في النهاية، أوطانًا حقيقية واسعة الصدر، تضم كل من انتمى لترابها بطيب خاطر. وحتى يصبح الإبداع إبداعًا حقيقيًا وتنويريًا كما أردد دائمًا، يجب أن يكون المبدع تحت حماية ما إن لم يستطع أن يعمل تحت أي ظرف، أو اضطر لترك وظيفته التي تحميه، لأي سبب.

لقد كتب عن بهنس المئات بعض رحيله الفاجع، كتب عنه مبدعون يخافون مصيره إن جار عليهم الزمن، وأيضًا مبدعون بعيدون جدًا عن عالمه، ويعيشون حيوات مترفة، ولم يكن ليهمهم كثيرًا إن شاهدوه حيًا في أيام تشرده، ونومه في العراء. وربما لن يقتربوا منه حتى أو يسألوا عن هويته، لكن المحصلة في النهاية، إن رسالة الإحباط الكبيرة، التي هي ضد فعل الإبداع، قد كتبت بالفعل، كتبها بهنس في يوم صقيعي، وفي بلد لم يكن بلده، ويمكن أن يكتب مثلها مبدع آخر، في يوم آخر.

كانت الرسالة موجَّهة لكل من امتلك العبء الإضافي بجانب أعباء الحياة الأخرى، وأعني من أمسك بلوثة الإبداع وما زال ممسكًا بها ويقدسها إلى أبعد حد، وأيضًا للصمت الذي رافق مأساته حتى اكتملت، ولم يتحول إلى ثرثرة إلا بعد أن ضاع.

الكتابة وأسئلتها

هناك سؤال قديم أُسأله دائمًا وبشكل متكرر، من قِبل المحاورين وبعض القراء الذين ألتقيهم أحيانًا في ندوات أدبية، ويمكن أن يُسأل منه كل من بدأ سكة الكتابة شاعرًا، ثم اتجه بعد ذلك لكتابة الرواية:

- ما الذي يمكن أن تقدمه الرواية، ويعجز الشعر عن تقديمه؟

في الحقيقة يبدو السؤال لي، مجحفًا في صياغته وهو يقارن بين ما يمكن أن يقدمه صنف من الإبداع، على حساب صنف آخر، فالشعر والقصة والرواية والموسيقى والنحت، كلها أصناف من الإبداع، اكتشفها الإنسان ويعبر بها عن حياته بخيرها وشرها، فالموسيقى تعبر والرسم يعبر والنحت، وكذا الأدوات الأخرى، لذلك لن نقول بأن الرسم بألوان الزيت، أفضل من الرسم بألوان الماء، ويفوق النحت في التعبير، وسنتذوق كل من هذه الفنون على حسب طبيعته، وننبهر به بحسب دفقات الانبهار التي يرسلها.

إجابتي على سؤال الشعر والرواية إذًا، من المفترض أيضًا أن لا تقدم صنفًا على صنف، فالشعر له ميزة ابتكار الصور

الفنية عالية الجودة، والسمو بالمفردات العادية، لجعلها تحلق بعيدًا، وهو أساس نبش الخيال، وإعادة إنتاجه، وهو أيضًا ركيزة في فن الغناء الذي نعشقه جميعًا. فحين تقرأ قصيدة مثل مديح الظل العالي لمحمود درويش، أو أعشاب صالحة للمضغ لمحمد سليمان، أو أي قصيدة أخرى لأحد الشعراء المجيدين، تحسن بتلك الأجنحة التي ارتدتها المفردات، وحلقت بها، وتحس أيضًا بأن لديك جناحين تشارك بهما في التحديق.

وبالرغم من أن محاولات عديدة، وكثيفة جرت لتخريب الشعر في السنوات الأخيرة، وأفقدته الكثير من هيبته القديمة، وتشرد كثير من متذوقيه، إلا أن وقع القصيدة الحقيقية يبقى، وما زال ثمة شعراء، يكتبون تلك القصيدة الواعية، وتوزع كتبهم أفضل من الكتب السردية.

أيضًا هناك مواضيع هامة، يمكن أن يلخصها الشعر في ومضة، بينما تحتاج لرسم مجتمع وشخصيات، وحوادث من أجل الحديث عنها في الرواية، مثل مواضيع السجن، والنفي، والتشرد وغيرها من المواضيع التي باتت من أهم سمات هذا العصر، وأقول إن ومضة الشاعر ستكون سهلة الوصول للمتلقي ولن تحتاج لوقت، بينما صفحات السارد، قد تحتاج لذهن مفتوح، ووقت طويل من أجل دحرجة الفكرة إلى ذهن المتلقي.

لذلك وبالرغم من أن سكك الإبداع باتت تبدأ الآن من الرواية، وبرغم من أن عدد لا بأس به من الشعراء المترسخين

في كتابة القصيدة، وضعوا أقدامهم في درب الرواية، إلا أن عددًا آخر لم يفعل، وظلّ محافظًا على موهبته الشعرية ويسعى لتطويرها، من أجل تلك الومضات التي ذكرتها، وتغني بلا شك عن وقت يحتاجه الشخص ليفكر في كتابة رواية، ثم يكتب خطوطها العريضة، وأخيرًا يحاول إنجازها كاملًا، وربما ينجح في ذلك وربما لا ينجح، ويتحول ما كتبه إلى مسودات ربما تضيع بمرور الزمن.

إذًا بخصوص هذا السؤال، أي ما يقدمه الشعر وما تقدمه الرواية، أعتقد أنني أجبت، فكل يقدم حسب طاقة تحمله، وما يحمله من صفة إبداعية، وكلاهما أمر مبدع بلا شك.

سؤال آخر، بدأ الناس يسألونني إياه، حينما علقت بطريقة غير مباشرة على موضوع ما يسمى: القصة القصيرة جدًّا، والتي باتت أيضًا منتشرة بشدة هذه الأيام، وتُقام لها مؤتمرات عديدة، وهناك كتّاب للروايات أعرفهم، بدأوا يكتبونها وثمة نقاد، تستهويهم وينظرون لها.. فقد وضعت في رواية أعمل عليها، شخصية كاتب قصة من هذا النوع، وبالطبع كتبت بعض القصص، ونسبتها له، ونشرت مقطعًا صغيرًا من الرواية يحوي إحدي تلك القصص على صفحتي في فيس بوك. المغزى كان تعليقًا غير مباشر على تلك القصص كما ذكرت، التي أرى في كثير من الأحيان إما أنها تتعدى على وظيفة الشعر، فتسرق جزءًا من خصائصه بلا إجادة تامة، أو يتم تركيبها من عدة مفردات، في عدة

سطور، ربما تطرح شيئًا وربما لا تطرح أي شيء، لكن كتَّابها يصرون أنها إبداع صميم جديد بكتابته وقراءته. السؤال الذي يتكرر عندي الآن: لماذا لا تكتب هذا النوع من القصص وتنشره في كتاب؟

بالطبع معظم من يطرح هذا السؤال، إما كتاب للقصة القصيرة جدًّا، واعتبروا ما نشرته بقلم شخصيتي، أعمالًا ناجحة، وتستحق أن أمضي في ترسيخها بحيث تصبح من كتابتي. هم بالقطع، يطبقون عليها رؤيتهم، كما أنهم يبحثون عن مؤازرة من كاتب روايات، بينما تختلف رؤيتي تمامًا، ولا أعتقد أنني كتبت شيئًا ذا قيمة، أو أنني سأكتب هذا النوع من الكتابة مستقبلًا، فالباحث عن الومضة الصادمة التي تلخص حدثًا ما، يجدها في الشعر كما قلت، والباحث عن الحكي، يجده في الرواية أو القصة القصيرة التي كان يكتبها أدباء الأجيال السابقة، وعدد من أدباء هذه الأيام. الحكاية القصيرة التي تُكتب باختزال وفي الوقت نفسه يتعرف إليها كل من يصادفها بأنها حكاية وليست شيئًا آخر، لا تعرف ملامحه.

النوع الآخر ممن يطرح عليَّ سؤال كتابة القصة القصيرة جدًّا، هم قُراء مفتونون بها ويحاولون كتابتها من حين لآخر، ويطمحون أيضًا في قراءة نماذج أكتبها أو يكتبها غيري ممن لهم زمن طويل في كتابة الروايات.

ولكي لا أكون قاسيًا في حكمي على القصة القصيرة جدًّا، أقول بأنني ربما لم أقرأ منها كثيرًا، ولم أتعرف إلى ملامحها

جيـدًا، لكـن فقـط أتمـنى أن تكـون فرعًـا مبدعًـا مـن فـروع الإبـداع، لا مجموعـة هذيانـات غـير واضحـة، ولا تعطـي أي ملمـح أو متعـة حقيقيـة عنـد مُطالعتها.

أسـئلة الكتابـة كثـيرة جـدًّا، فمـا دامـت الكتابـة نشـاطًا مـن أنشـطة الإنسـان فـلا بـد مـن تسـاؤلات حولهـا، هنـاك مـن يسـأل عـن وعـي حـين يقـرأ كاتبًـا ويتـذوق كتابتـه أو لا يتذوقهـا، وهنـاك مـن يسـأل وهـو لا يعـرف شـيئًا عـن الكاتـب، ولـم يقـرأ لـه شـيئًا فقـط مجـرد أسـئلة يمكـن أن تُسـأل في الوقـت نفسـه لكاتـب مبتـدئ أو عريـق في الكتابـة، لا فـرق أبـدًا.

من ضرورات الكتابة

في جلسة ضمتني مع كاتبة عربية صديقة، تكتب بلغة أجنبية، وكانت تتحدث عن روايتها الأخيرة، ذكرت أن في الرواية مشهد عن عُرس لإحدى قريبات الراوية، موجود بتفاصيله كلها، من ساعة حضور المدعوين، إلى لحظة تناول العشاء، إلى المغنين الذين شدوا في ذلك الليل ورقص الناس على إيقاع ألحانهم حتى الفجر.

قالت الكاتبة، إنها حين أنهت روايتها واعتبرتها صالحة للنشر، كتبت إن الراوية ذهبت إلى عُرس فقط، لكن المحررة التي تشرف على تحرير مسوداتها في دار النشر، أعادت إليها المسودة، طالبة منها أن تكتب تفاصيل العرس كلها، لأن هناك قارئ لا تعرفه، قطعًا يتلهف لمعرفة ماذا جرى في ذلك العُرس، وقد يصاب بإحباط كبير، إذا ما قرأ المشهد ولم يعثر على التفاصيل التي يريدها. وبناء على رأي المحررة، أعادت الكاتبة تلك الجزئية، وكانت من الجزئيات التي نجحت بالفعل، وتُذكَر دائمًا في كل قراءة تتحدث عن الكتاب.

وفي زيارة لي لإيطاليا منذ عدة أشهر، التقيت كاتبًا إيطاليًا واسع الانتشار إلى حدٍّ ما، أخبرني أن كثيرًا من المشاهد

الدرامية الناجحة في أعماله، جاءت كتابتها بإيعاز من محرره، الذي يعرف كثيرًا من الأسرار، ويوحي إليه بأفكار ناجحة، ومنها مشاهد لم تكن تخطر بباله أثناء الكتابة، وحين كتبها في النسخ المعدلة قبل النشر، بات مستغربًا، كيف أنه أغفلها حقيقةً.

إذًا كانت الصديقة الكاتبة، والكاتب الإيطالي لا يتحدثان عن وظيفة مترفة، أو وظيفة بلا ضرورة، هي وظيفة المحرر الأدبي، ولكنهما تحدثا عن واحدة من أهم الوظائف في صناعة النص الأدبي وانتشاره، فالأمر هنا ليس حكرًا على الكاتب فقط، ولكن هناك من يشاركه تربية النص وتجميله، وتحسين مستواه حتى يخرج للقراء في أفضل حالاته. صحيح إن الكاتب هو من يعثر على الفكرة، من يسعى لتطويرها ومن يبذل جهدًا مضاعفًا لكتابتها، لكن حتمًا تظل النظرة الأخرى، وخاصة إن كانت نظرة ثاقبة ومحترفة، مطلوبة بشدة، لتمنح النص رونقه الأخير كما ذكرت.

ولأن الكتابة في الغرب مهنة عريقة، تشبه الطب والهندسة والقضاء وغيرها من المهن، ويقوم بها موظفون هم الكتّاب، أو المبدعون عمومًا، فقد أوجدت من حولها تلك المهن الأخرى الهامة، كالتحرير الأدبي، والطباعة والنشر، والتوزيع وغيرها.

إذًا يتضح لنا، إن المحرر الأدبي يستطيع أن يشارك ولو بحرف واحد، يمنح النص تميزًا، وأيضًا يمكنه أن لا يقترح أي تعديل للنص بعد قراءة المسودة، ويكون هذا أيضًا

رأيًـا جيـدًا، يأخـذ بـه الكاتـب والنـاشر معًـا.

ولـو نظرنـا إلى تلـك الروايـات العظيمـة، التي تأتينـا مترجمـةً مـن الغـرب، ونسـتمتع بأجوائهـا لمـا تخيلنـا أن الكثـير مـن أجوائهـا، كانـت بإيحـاءات مـن محرريـن محترفـين عملـوا عليهـا. مـن دون أن يخفـض ذلـك مـن قـدر الكتّـاب الذيـن صاغوهـا.

لكـن، هنـاك سـؤال تبـادر لذهـني وسـألته للكاتبـة الزميلـة، وأيضـا للكاتـب الأوروبي، وبعـض الذيـن تعاونـوا معـي في الترجمـة:

مـا هـي المؤهـلات المطلوبـة لـدى الشـخص حـتى يشـغل وظيفـة المحـرر الأدبي ويضيـف كل تلـك البهـارات عـلى نصـوص الكتّـاب؟

الإجابـة: لا مؤهـلات كـبرى حقيقـة، ومثلمـا أن الكاتـب نفسـه غـير مُطالَـب بـأن يكـون مـن حملـة المؤهـلات الكـبرى حـتى يكتـب قصـة أو روايـة، فالمحـرر أيضًـا كذلـك. هـي موهبـة يحملهـا البعـض ولا يحملهـا البعـض الآخـر، وهـي ذكاء، وقـدرة جينيـة للنظـر عميقًـا في النصـوص والإضافـة إليهـا أو الحـذف منهـا. بعـض أولئـك المحرريـن قـد يكونـوا هـم أنفسـهم كتّابًـا للروايـات أو شـعراء، لـم تنجـح نصوصهـم، أو قـد يكونـوا يعرفـون أدق خصائـص الكتابـة، لكنهـم اكتفـوا بالتحريـر مـن دون أن يكتبـوا حرفًـا واحـدًا.

والـشيء المدهـش في وظيفـة مثـل أولئـك المحرريـن أنهـم ينحـازون لمـا يرونـه مناسـبًا بـلا تـذوق شـخصي، بعكـس

الكاتب حين يعمل محررًا، هنا سيفتقد الحياد المطلوب، ويتعامل مع النصوص بحسب طريقته في الكتابة، وليس معيار الجودة أو إضافة ما يميز تلك النصوص.

أعتقد أننا وبالرغم من عدم وجود وظيفة المحرر الأدبي في العالم العربي، أي في ثياب وظيفة رسمية ملحقة بدور النشر، إلا أننا نملك هذه الوظيفة بالفعل بطريقة أخرى، فكثيرًا ما نقرأ في حوار مع كاتب، إنه يعطي النص لأحد أصدقائه ليعطي رأيه فيه قبل أن يرسله للناشر، وهنا لا بد أن رأي الصديق هذا قد أضاف شيئًا أو حذف شيئًا آخر. أيضًا هناك من يردد بأن زوجته هي قارئته الأولى، وهنا نستطيع كذلك أن نستشف ما يمكن للزوجة أن تفعله بنصٍّ أراد صاحبه رأيها فيه.

أذكر عام 1987 حين كتبت روايتي الأولى وكانت بعنوان كرمكول، على اسم قرية ريفية وُلدت فيها، أن ذهبت بها إلى مثقف مصري، يقيم في طنطا، قريبًا من مكان إقامتي. كان اسمه محمد الشيمي، وكان معروفًا بعشقه للكتب، ومصادقتها وحفظ مقاطع عديدة منها يرويها للناس في الطرق والمقاهي، وكان أول من لفت انتباهي إلى روائع لم أكن قرأتها آنذاك، مثل يوليسيس لجيمس جويس، وجابريلا قرفة وقرنفل لجورجي أمادو، ومديح الخالة لماريو فارجاس يوسا. سجنت الشيمي عدة ساعات وأنا أقرأ عليه نصِّي كاملًا، وحين فرغت وجدته ينحاز للنص بشدة، ثم يزودني بعدة أفكار أخرى ستساهم إن طبقتها في زيادة

إبهـار النـص.

الـذي حـدث أنـي لـم أفعـل مـا أشـار بـه الشـيمي ونـشرت النـص بنفـس هيئتـه الـتي كتبتـه بهـا، ولـو فعلـت لربمـا كان لتلـك الروايـة القصـيرة الـتي انمحـت الآن مـن قائمـة كتـبي، شـأن آخـر. لقـد كان الشـيمي محـررًا بثقافتـه ومقدرتـه وكنـت مبتدئًـا بحاجـة لوظيفتـه، وبالرغـم مـن ذلـك لـم أسـتغلها.

أخلـص إلى أننـا بحاجـة لوظيفـة المحـرر الأدبي الرسـمية، في العالـم العـربي، وحـين تكـون رسـمية، قطعًـا هـي ملزمـة بخـلاف رأي الصديـق أو الزوجـة، وهـو رأي ربمـا يلـتزم بـه الكاتـب وربمـا يلقـي بـه بعيـدًا. قطعًـا سـتضيف مثـل تلـك الوظيفـة كثـيرًا للإبـداع المكتـوب، وسـتتخلص مـن الزوائـد الـتي تمـلأ الروايـات بـلا معـنى. الروايـة المكتوبـة بفكـرة خلّاقـة وأسـلوب ذكي ومـرت عـلى محـرر ذي درايـة وموهبـة، تحـدث في رأيي أثـرًا أعمـق ممـا لـو أنهـا كانـت مسـئولية الكاتـب وحـده.

المُنتَج الثقافي مقهور إعلاميًّا

بالطبع كما هو معروف، فإن أكبر ثورة حدثت في السنوات الأخيرة من القرن الماضي، وقفزت بالحياة قفزة نوعية كبيرة، ومنحت الإنسان في أي مكان في الدنيا، فرصة أن يكتب أمنياته، وطموحه وحتى خذلانه وانكساراته، ويشارك كل ذلك مع الناس، هي ثورة الاتصالات، لقد اكتملت أركان تلك الثورة على مهل، لكن نتائجها كانت مُباغتة ومُذهلة، وتزداد مفاجآتها كل يوم، وبات الآن من الممكن لأشخاص في قرى نائية، في بلاد تفتقر لأدنى مقومات الحياة، أن يستفيدوا من تداعيات تلك الثورة الكبيرة، أسوةً بغيرهم من سكان المدن ذات الزخم والرونق. بات ممكنًا جدًّا لراعٍ أميٍّ، يتكئ على جذع شجرة، في قرية مثل: الحمام طار، في ريف سوداني مهمَّش، أن يخاطب إذاعة البي بي سي، من هاتفه المحمول، ويُبدي رأيه في سياسة أمريكا وروسيا، ومظاهرات كرواتيا مثلًا، ويمكن لذات الشخص وعن طريق برنامج سكايبي المرئي، أن يشارك بصوته وصورته، في تحقيق تلفزيوني، عن شح المراعي، وتقلص عائدات الثروة الحيوانية في بلاده.

بالطبع وسط كل تلك الإنجازات التي وفرتها ثورة

الاتصالات، ليستفيد منها الإعلام، سواء عن طريق قنوات الراديو والتلفزيون، أو برامج الهاتف المحمول، أو الإنترنت، أعظم إنجازات هذه الثورة، ويوظفها في خدمة الأنشطة المختلفة من تجارية ورياضية واقتصادية، وغير ذلك، كان لا بد أن يأتي ذِكر الثقافة.

والثقافة نعرف جميعنا أنها لو قُدِّرَت حقَّ قدرها، لكان لها أولوية كبرى في جميع أنشطة الإنسان، هي في رأيي أداة العقل التي تحرك الجسد سلبًا أو إيجابًا، فكلما ازدادت ثقافة الإنسان ومعرفته، زاد تفاؤله، وطموحه في إنجاز حياة نوعية كاملة، وكلما غيبت تلك الثقافة، وشحت المعرفة، عاش الإنسان بلا طموح، وهكذا، لذلك نجد دائمًا أن من أهم أهداف الديكتاتوريات في جميع أنحاء العالم، وعلى مدى التاريخ، العمل على إتلاف المعرفة، وتغييب الوعي العام، وبالتالي صناعة مجتمع خاضع بجميع قطاعاته لفكر وأدبيات تلك الديكتاتوريات، والأمثلة معروفة لجميع.

إذًا نحن نتساءل وقد امتلكنا كل وسائل الانتشار الآن، ونستطيع معرفة دبيب النملة في جحرها، إذا ما سلط عليه الضوء، ماذا استفادت الثقافة، أو ربما كانت ستستفيد، إذا ما عوملت كمنتج بشري محترم، أو كسلعة غالية ومقدرة، ومن الواجب احترامها وتسويقها؟ خاصة إن الثقافة قد رُبطت بالإعلام في مسمى الوزارات والإدارات المعنية، في معظم الدول العربية، أي أن الذين يملكون صفة تداول الإعلام في شكل قرارات أو مقترحات، يملكون أيضًا صفة

تـداول الثقافـة وخدمتهـا. ومـا يمكـن أن يقدمـه مسـئولو الإعـلام للثقافـة هـو نفسـه مـا يمكـن أن يقدمـه مسـئولو الثقافـة للإعـلام، وهكـذا.

نعـم هـذا أكيـد، لكـن لـو ألقينـا نظـرة شـاملة عـلى مـا يُقدَّم إعلاميًّـا لخدمـة الثقافـة، لمـا عثرنـا عـلى نتائـج كبـيرة، هنـاك عـدة عوامـل تؤثـر في تلـك المسـألة، وتـبرز الشـح الإعلامـي في معاملـة الثقافـة بوضـوح، سـواء مـن ناحيـة الإعـلام الرسـمي لبعـض الـدول، أو حـتى الإعـلام الخـاص المتمثـل في قنـوات فضائيـة، أو مواقـع إنترنـت كـبرى، يملكهـا أفـراد ومؤسسـات، وتمـارس أنشـطة حياتيـة مختلفـة.

لقـد لاحظـت أولًا خلـلًا كبـيرًا في مفهـوم الثقافـة لـدى معـدِّي كثـير مـن البرامـج التلفزيونيـة، الـتي تسـمى ثقافيـة، هنـاك برامـج تحمـل مثلا اسـم: سـاعة ثقافـة، أو مـن الثقافـة وإليهـا، تسـتضيف مغنيًـا معروفًـا، أو حـتى غـير معـروف، ليتحـدث عـن نشـأته في حـي شـعبي، ولعبـه كـرة الـشراب مـع الأولاد في الشـارع، وعثـوره عـلى ملحـن جـاء مصادفـة لحيهـم، انتشـله وصـيَّره مغنيًـا، ثـم يمسـك بالعـود بـين كل كلمـة وأخـرى، لـيردد أغنيـة. وفي نفـس مثـل تلـك البرامـج، يمكـن أن يُسـتضاف سـياسي مـن أي حـزب، أو لاعـب كـرة مخـضرم، أو حـتى شـلة مـن مشـجعي فريـق كـرة قـدم، ولا يُسـتضاف شـاعر أو كاتـب قصـصي أو روائي، ليمـلأ المـكان معرفـةً، ويمنـح كلمـة ثقافـة حقهـا.

ثانيًـا وحـتى في البرامـج الإذاعيـة والتلفزيونيـة الـتي يصـادف

أن تستضيف مثقفًا بالفعل، أن تناقش شاعرًا عن قصيدة جديدة كتبها أو تعرض رواية جديدة لكاتب، قدم فيها شيئًا ذا قيمة، ويمكن أن تُقرأ لو أُلقي عليها الضوء، نجد ثمة خللًا واضحًا، فمواعيد تلك البرامج دائمًا في أوقات ميتة، لا تشبه الأوقات التي تنبض انتعاشًا، وتخصص للمسلسلات التجارية المثبطة للذوق العام، أو نشرات الأخبار الغاصة بالدم والضحايا. أو لإعادة مباريات كرة القدم التي لُعبت في بلاد عدة، وأضاع فرق التوقيت بين الدول مشاهدتها حية. وأقول أنني شاركت على مدى سنوات، في برامج إذاعية وتلفزيونية عديدة، تحدثت فيها عن تجربتي ككاتب روائي، وقدمت شهاداتي كاملة في الكتابة، وحتى الآن لم أستمع لأحد تلك البرامج، أو أشاهده، ذلك ببساطة أنها بُثّت جميعًا في الوقت الذي لا يمكن أن يشاهدها فيه أحد، أي في ساعات متأخرة من الليل، أو مبكرة من الصباح. وباستثناء البرامج المباشرة التي تنقل فعاليات ثقافية موسمية مثل معارض الكتب، وشاركت فيها أثناء وجودي في تلك المعارض، لم أشاهد شيئًا آخر. وقد لاحظت أن كثيرًا من الأصدقاء الكتّاب، أو المثقفين عمومًا، يضعون روابط لفيديوهات، عن لقاءات تمت معهم، ولم يشاهدها أحد، يضعونها في مواقع التواصل الاجتماعي مثل فيس بوك وتويتر، على أمل أن يشاهدها الأصدقاء ويدلون برأي، وأيضًا من متابعتي لتلك المواقع، نادرًا ما يتابع أحد تلك الفيديوهات، لأن تلك المواقع برغم جاذبيتها واشتعالها، وامتلائها بالحياة والزخم، لن تساند أي تجربة

مهما عظمت، مساندة كبيرة. هي باختصار شديد، في غالبية مرتاديها، مواقع للتسلية، ومغازلة صور البنات، وكتابة الخواطر والبحث عن معجبين لها، وقليل جدًّا أن تجد مهتمين حقيقيين يناصرون تجربة الكاتب، وينتصرون له لو ظُلِم وظُلِمَت تجربته.

لكن بمناسبة مواقع التواصل هذه أضيف، إلى أنها برغم السلبيات التي ذكرتها عنها، استطاعت التقريب بين المنتج الثقافي، وبعض متلقيه، حيث يمكن ببساطة أن يعلن عن كتاب ما، ويجد من يهتم به، ويمكن أن يعلن المبدع عن محاضرة سيلقيها في بلد ما، ويجد من يستجيب له ويحضر تلك المحاضرة. أيضًا مسألة التواصل التي مهما كانت دوافعها، والتي تنشأ عادة بين المبدع ومتلقي إبداعه وتتطور في أحيان كثيرة إلى علاقة صداقة حقيقية، أو علاقة استخفاف من المتلقي تجاه كاتبه، إن تواصل معه بشكل يومي، تساهم أحيانًا في انتشار العمل الأدبي، أو المنتج الثقافي عمومًا.

أعود لمسألة المنتج الثقافي، سواء كان رواية أو مجموعة قصصية أو ديوان شعر، أو لوحة، أو مسرح وغيره، وسأعتبره سلعة محترمة وضرورية تمامًا مثل الدقيق، والأرز والسكر وصابون الغسيل، أكثر من ذلك سأعتبره سلعة كمالية لكنها مطلوبة بشدة مثل الشامبو والعطور وأدوات تجميل المرأة، وحفاظات الأطفال. المشاهد الذي يجلس أمام جهاز التلفزيون قد يصاب بالكآبة والملل وهو يشاهد

عرضًا متكررًا لفتاة جميلة، وقد تطاير شعرها وسمي حريريًا وأكثر نعومةً بعد استخدامها لشامبو معين، لشاب وسيم يستخدم شفرة للحلاقة، ولا يجرح، ولطفل توقف عنده التسرب وابتدأ يضحك لأول مرة، بعد استخدامه لحفّاظ ما. كل ذلك يعاد ويكرر بعد كل نشرة أخبار، أو مشهد في مسلسل، ويصيب بالملل كما ذكرت، لكن التكرار مدفوع الأجر ذلك، برغم كل شيء، ينحت صورًا لا تُمحَى بسهولة، في ذهن المشاهد، ويسعى لامتلاك تلك المنتجات. الكتاب إن عومل كذلك، سيصبح سلعة، وهذا ما يفعله الغرب بالضبط، في صناعة الكتاب، وترويجه بتداعيات الثورة الإعلامية، حتى يصبح إعلانًا مملًا ومكررًا لكنه باق في ذهن المشاهد الذي سيسعى لمعرفة ما فيه، وأثناء زيارة لي لمركز ماندادوري للكتاب، في مدينة ميلانو الإيطالية، ذهلت من اتساع المكان ونظافته، حتى لكأنه منتجع أو فندق كبير، ذهلت من المعاملة الكريمة التي يلقاها الكتاب، حيث يوفر بجميع أنواعه للأذواق المختلفة، أعني ورقيًا وإليكترونيًا، ومسموعًا، ومع أفلام دعائية له، وكيف أنه كاد أن يصبح عطرًا باريسيًا، حين تقدمه لك فتاة مليحة، وتحدثك عن مزاياه، وصادف أن حضرت عرضًا لم أفهمه بالطبع وكان عن الترجمة الإيطالية لرواية الجحيم، آخر ما كتبه الأمريكي دان براون، وما حدث بعد نهاية العرض أن الكتاب تم شراؤه من جميع الحضور.

لقد دُعيت لتقديم الترجمة الإيطالية لإحدى رواياتي

في مكتبـة اسـمها (لي جاريـوت)، في قلـب رومـا، كانـت تقـع في شـارع ضيـق، وسـط عـدد مـن المطاعـم الشـعبية، وأذهلـني أن عـثرت عـلى صـوري مـع صـور الكتـاب، ملصقـة في ذلـك الشـارع، وداخـل المكتبـة، وعـدد كبـير مـن الإيطاليـين يحملـون نسـخًا مـن الكتـاب، وينتظـرون المؤلـف. هـذا جيـد بـكل تأكيـد، نـشر الملصقـات في الشـوارع إعـلام لا يسـتهان بـه، وربمـا في البـلاد الـتي يهيـم فيهـا النـاس في الطرقـات سـعيًا وراء لقمـة العيـش، أفضـل حـتى مـن إعـلام التلفزيـون.

نحـن هنـا، أعـني في بلادنـا، لا نريـد كل ذلـك، ولكـن قليـلًا منـه، نريـد المعاملـة الكريمـة للمنتـج الثقـافي، ليـس إلا، حـتى يتأكـد لنـا، إن الإعـلام أخًـا حقيقيًـا ومحبًـا للثقافـة، وليـس أخًـا قاسـيًا، يعتبرهـا سـوءةً، ويحـاول مواراتهـا.

مـن الحيـل الجديـدة الـتي ابتكرهـا المثقفـون، أو نقلوهـا مـن الغـرب، لترويـج منتجهـم مـن الكتـاب، حفـلات التوقيـع في معـارض الكتـب، أو في مكتبـات كبـيرة تدعـم مثـل تلـك النشـاطات وتعتبرهـا وسـائل لا بـأس بهـا في زيـادة الربـح. هـذا النشـاط، أعـني توقيـع الكتـاب يحتمـل الربـح والخسـارة معًـا، فـإن تمـت تغطيتـه إعلاميًـا قبـل التوقيـع بفـترة جيـدة، كسـب الكتـاب قـراء ربمـا لا يكونـون معنيـين كثـيرًا بالقـراءة، وإن لـم يغـطَّ إعلاميًـا فشـل كل شيء.

مـن واقـع تجربـتي في هـذا المجـال، صادفـت شـيئًا مـن النجـاح، لكـن الإخفاقـات أكـثر، ولا أنسـى ذلـك اليـوم الـذي جلسـت فيـه لأوقـع كتابًـا جديـدًا، بـلا تغطيـة إعلاميـة،

معتمدًا على معرفة القراء لي، ولم يحضر أحد، أيضًا كيف عثرت على شاعر كبير، يجلس في جناح لإحدى دور النشر، من دون أن ينتبه إليه أحد، ذلك ببساطة أن لا أحد يتوقع وجوده، فقد كان بلا ثوب إعلامي يغطيه، حتى يدركه الناس.

إذًا أخلص إلى الدور الذي يمكن أن يؤديه الإعلام، في تعامله مع الثقافة، وهو دور كبير في محتواه ومعناه، ولكن لا يحتاج لفهم كبير. أولًا لا بد من التنوير بمعنى الثقافة الكبير الشامل لشتى أنواع المعرفة الإنسانية، وليس الدور الضيق الذي قد يؤديه مغن جميل الصوت، لكنه لا يمتلك شيئًا من المعرفة، أو يؤديه سياسي أيضًا لا يعرف الكثير. أن تخصص للمنتج الثقافي حصص كافية في ساعات البث التلفزيوني أو عبر الراديو، تنبه الناس إلى أهمية ما ينتج، وتشجعهم على امتلاكه، ولا تكون الحوارات مع المثقفين في ساعات شلل الحياة، بحيث لا يشاهدها أو يستمع إليها أحد. ويضطر أولئك المثقفون إلى البحث عن حيل بديلة لإيجاد مشاهد أو مستمع لها. وأيضًا لا بد من جعل حصص البث تلك حقيقية وليست مزورة، تستضيف أشخاصًا من الحالمين الذين لا علاقة لهم بالثقافة، أي أن تتم دراسة من سيقدمون جيدًا قبل تقديمهم إعلاميًّا، ولا تتكرر لقاءات مخزية مثل ذلك اللقاء الذي أجري عن جهل كبير مع مدع للكتابة، أو حالم بها، لم يكتب حرفا واحدا، وقدمه الإعلام بوصفه منجزًا لمشروع كتابي كبير،

ترجم لمختلف لغات العالم، وأوصله لأبواب جائزة نوبل.

لقد كتبت يومها عن تلك الفضيحة الكبرى، ونوهت إلى جهل من يديرون البرامج الثقافية على قلتها بحيث لا يعرفون حتى من هو الضيف الذي يقدمونه لجمهورهم المشاهد. ولطالما شاهدت اسمي وأسماء كتّاب أكبر مني مكتوبة خطأ في حوارات أجريت معهم، أو فعاليات سيشاركون فيها وابتأست كثيرًا من الدور العكسي الذي يؤدى في تلك الحالات. الأمر هنا يحتاج لدورات تدريبية للذين ينوون العمل في الإعلام الثقافي، وليس مجرد شهادات جامعية، أو وجوه جميلة ستزين شاشات التلفزيون، أو أصوات ممتلئة ستنطلق خاوية عبر الأثير.

الرواية وقيم المجتمع المدني

كما هو معروف، فإن المجتمع المدني، يعرف في كثير من الدراسات والمقالات التي تناولت نشاطه بأنه مجموعة التنظيمات الطوعية الحرة التي ينشئها أفراد من داخل المجتمع الكلي، و تتحرك في المجال أو الحيز المتوفر بين الناس والدولة، أي بين المواطنين ومؤسسات الدولة الرسمية.

هذه التنظيمات التطوعية تنشأ في الغالب لتحقيق مصالح معينة أو لتقديم خدمات للمواطنين أو لممارسة أنشطة إنسانية متنوعة، وتلتزم في وجودها ونشاطها بقيم ومعايير منبعها الاحترام والتسامح والمشاركة العامة، وليس بالضرورة أن تكون عدوًا مطلقًا للسلطة السياسية المهيمنة، وإنما مكملة لنشاط تلك السلطة، وسادة للثغرات التي تعجز السلطة عن سدها، ومن أمثلة تلك التنظيمات أو الهيئات، ما نجده من تنظيمات تقدم مواد الإغاثة للأماكن المنكوبة في العالم بفعل الفيضانات والزلازل والحروب وغيرها، وجمعيات أصدقاء مرضى الأمراض المزمنة مثل السرطان والفشل الكلوي وأمراض القلب، والتي تقدم إعانات، وأدوية، وتبحث عن متبرعين لزراعة الأعضاء،

وتوفر جوًّا من الاهتمام العام بالمرضى، وهكذا في عديد من النشاطات، نجد مثل تلك الجمعيات والهيئات. أيضًا من منظمات المجتمع المدني، يمكن أن تضاف الجمعيات الخيرية، والطرق الصوفية، واتحادات الطلاب والهيئات النقابية غير التابعة للدولة. ومنظمات مناهضة التعذيب، ومناصرة قضايا المرأة، ومحاربة ختان البنات في الدول التي ما زالت تمارسه.

إذًا نحن أمام سلطة أخرى طوعية بجانب السلطة الرسمية المتمثلة في الدولة وأجهزتها، مع الفرق أن الأولى تخضع لقوانين تسنها السلطة الثانية، وربما تصطدم بها في كثير من النشاطات، وبالتالي فإن الثانية، أو الرسمية، لها صلاحية إلغاء كل نشاط للمجتمع المدني، حتى لو كان مثمرًا، إذا صادف وتعارض مع مصالحها.

هذا كله مفهوم، ويمكن استيعابه بسهولة، لكن في الحقيقة ما علاقة كل ذلك بالرواية؟ والرواية كما هو معلوم، جنس أدبي خالص، له مجيدوه، وفتنته، ونشاطه، ومتابعوه، وهو من نتاج أفراد بالضرورة جزء من نسيج المجتمع ككل، والذي يضم بداخله مجتمعا سلطويًّا سياسيًّا، وآخر مدنيًّا طوعي النشاط. وبما أن العلاقة بين السلطة والمجتمع المدني، في الغالب علاقة محايدة، يلتزم فيها الطوعيون بقوانين البلاد التي يعملون تحت مظلتها حتى لو كانت جائرة، ويعملون في نشاطهم الإنساني، فإن الرواية لا تبدو كذلك، فهي إما مناهضة صريحة للسلطة،

أو تسير في خطها، أو تمسك بالعصا من المنتصف، بمعنى أن الرواية ليست ملزمة باتباع قانون ما، وإنما تكتب كيف ما يرى كاتبها، وتثير ما تثيره بعد ذلك.

بعد كثير من التفكير، واستعادة لأجواء روايات عديدة مررت بها في قراءاتي المتنوعة، أو كتبتها شخصيًا، أجد أن العلاقة بين الرواية والمجتمع المدني، تبدو لي علاقة قرابة من الدرجة الأولى، لكنها مغيبة، أو غير واضحة تمامًا بسبب عدم الاهتمام المعروف بفن الرواية، أو بالإبداع عمومًا بجميع أنواعه في العالم العربي. وإذا كانت بعض الأعمال الروائية قديمًا قد غيرت من وجه العالم، وحرضت ضد الأنظمة، وحتى صاغت مفاهيم جديدة للحب والتهجد والحياة العامة، فإن لدينا من الروايات ما يفعل ذلك وأكثر، لو تمت دراسته جيدًا وتم تدريسه للطلاب، ولو تخلت غالبية جماهير القراء عن صلفها في البحث عما هو أجنبي ومترجم، والتفتت لما يكتبه أهل الديار وأنصفته.

الرواية إذًا تقوم بالدور التنويري في المجتمع، كأي أداة ثقافية فاعلة حتى لو كان ذلك على المستوى النظري. وهي مصدر معلومات ثري، يمكن أن تهتدي به أي هيئة تريد أن تهتدي فعلًا، وهي بكل تأكيد مفتاح لا يصدأ، ويمكن أن يستخدم لفتح أبواب مغلقة، وإلقاء نظرة لما خلفها. وبالتالي معالجة الخلل إن كان ثمة خلل موجود هناك. وكما قلت إن الروائي غير ملزم بالسير في الضوء، والخروج من خلف الظلال من أجل أن يكتب رواية، ولذلك فإن ما

يلتقطه وحده بناء على ذلك، يمكن أن يعادل ما تسعى هيئة طوعية كاملة، لالتقاطه وتعديله. والرواية مثلها مثل المجتمع المدني من ناحية السلمية المطلقة، واحترام الإنسان والسعي للارتقاء به، فقط كما قلت هي تعمل من ناحية تنويرية بحتة، بينما المجتمع المدني، نشط وفاعل بمنظماته وهيئاته على الواقع. وقد يستفيد من قرابته بالرواية أو لا يستفيد منها على الإطلاق.

شيء آخر يمكن تعميمه على المجتمع المدني، والرواية معًا من دون أي مشكلة، وهو مسألة كشف المستور، أو كشف المسكوت عنه كما يطلق على الخفايا في المجتمعات، فالرواية بنبشها في المجتمع ككل، وسيرها في الأزقة والشوارع المهجورة، وبيوت التعاسة والفقر، وسياحتها في العادات البالية التي ما زالت راسخة في المجتمعات الشعبية، مثل عادة ختان البنات، وعادات أخرى تتبع نهج الخرافة مثل: الزار، وزيارة القبور التي يعتقد في صلاح سكانها والتبرُّك بها، فهي تؤدي واجب التنبيه، وتنوه إلى قصور السلطة عن التعاطي الصحيح مع المجتمع، وعدم اهتمامها بمداواة ما اعتل من جسده. وهو الدور الذي تؤديه هيئات المجتمع المدني حين تهرع لترميم البيوت التي هدها مطر أو فيضان، حين تنشئ مرافق لأجهزة غسيل الكلى، حين تهتم بأرامل الحروب وتسعى لإسكانهن في بيوت لائقة، حين تتصدى للمجاعات وتوزع الأكل والشرب. هنا هي تؤدي واجب التنبيه أيضًا، وكشف القصور الكبير في أجهزة

السلطة، ولعل ذلك جزء من قرابتها الوثيقة بالرواية.

الشيء الذي أود إضافته أيضًا، هو ما يمكن اعتبار المجتمع المدني نفسه ونشاطاته المتعددة، منبعًا من منابع كتابة الرواية. فكما هو معروف إن الرواية تنبع من فكرة، وتتطور تلك الفكرة في ذهن الكاتب إن كان محظوظا أو كانت الفكرة مقنعة، لتمنح نصًا في النهاية، ولأن نشاطات المجتمع المدني كثيرة ومتنوعة كما قلت، فالمتابع أو المتأمل لها، يستطيع الحصول على أفكار كثيرة ويستثمرها.

أتذكر الآن أن والدي كان عضوًا في هيئة اسمها هيئة أصدقاء المرضى، كانت مكونة من أفراد طوعيين، مهمتهم السعي لتوفير الدواء للمرضى الفقراء، ومواساتهم، وبذل جهد في الارتقاء بالرعاية بهم داخل المستشفى الحكومي. كنت أرى والدي وهو يركض في تلك المهمة الإضافية خارج عمله، يراسل محسنين من خارج البلاد لجلب الدعم، وينتشي حين تصل الحقن المضادة لمرض السحائي أو تطعيمات الحصبة والسعال الديكي من محسن يقيم في المملكة السعودية مثلًا، وينتشي أكثر حين تصل تلك الأدوية واللقاحات للذين يحتاجونها.

لقد كنت صغيرًا في ذلك الوقت لكني انتبهت لذلك العمل الطوعي وانحفر في ذهني، وحين كتبت روايتي زحف النمل بعد ذلك، لم تفارقني صورة والدي وما كان يقدمه، وأنا أكتب باحثًا مع شخصيات الرواية عن كلية بديلة للمغني أحمد ذهب، بطل الرواية. لقد كان ذلك النشاط موحيًا بلا

شك، أو لأقل واهبًا لفقرات أعتبرها متماسكة داخل ذلك النص. كذلك روايات أخرى لي مثل العطر الفرنسي ومهر الصياح، كنت فيها مهتديًا بما أعرفه عن النشاط الطوعي، واستخدمته بقوة.

في بداية التسعينيات من القرن الماضي، كنت أعمل مفتشًا طبيًا في الحدود السودانية الإرترية، شرق السودان، وكنت بحكم منصبي ذلك، عضوًا في هيئة طوعية للإغاثة، ليست تابعة للدولة، لكنها تسير تحت مظلة الدولة. عن طريق تلك الهيئة، أتيح لي أن أتوغل في الصحراء، وأشاهد القحط جليًا، وأساعد في إغاثة منكوبي الجفاف والجوع والزحف الصحراوي، وشح المراعي للقبائل الرعوية، وكانت تلك التجربة أيضًا من التجارب الثرية التي استوحيتها من ذلك النشاط، حيث كتبت حكايات سيرة الوجع، ورواية أخرى من لحم البدايات اسمها نار الزغاريد، وفيها تعرضت لسيرة أحد موظفي الإغاثة، وكان يعمل في منظمة طوعية خارج البلاد لكنها اضطلعت بمهمة إغاثة سكان تلك المنطقة، لقد كنت شاهدًا حين جاء ألبيرت راكبًا شاحنة فرنسية الصنع وخلفه عشرات الشاحنات، تحمل أطنانًا من الإغاثة، التي تشمل أشياء وأغذية ومعدات، لم تكن السلطة لتفكر فيها على الإطلاق، حتى لو كان ذلك في بلد ميسور الحال. كان ألبيرت يمارس نشاطه المجاني كجزء من منظومة المجتمع المدني التي تغيث، وفي نفس الوقت، يخترع وراءه حكايات وتفاعلات، تخترع بدورها رواية لكاتب كان حاضرًا في ذلك اليوم.

رواية من تشيلي

من الأعمال الروائية الجميلة التي اقتنيتها من أحد معارض الكتب، وانتزعت لها وقتًا حتى أقرأها، رواية ساعي بريد نيرودا، للكاتب التشيلي: أنطونيو سكارميتا، وبترجمة من المترجم القدير صالح علماني، الذي كما هو معروف، قدم لنا أجمل آداب أمريكا اللاتينية، وأدخلنا في ذلك العالم السحري الغريب، وكلنا قرأنا ترجماته الرائعة للمعلم جابرييل ماركيز، وإيزابيل أليندي، وماريو فارجاس يوسا، وعدد كبير من كتاب تلك القارة الساحرة. بعضهم معروف بشدة، وبعضهم غير معروف لكن كتابته مهمة جدًّا. وترجمته هذه، ليست الأولى لسكارميتا، فقد قرأت له من قبل رواية متشابكة هي فتاة الترمبون، أذكر أنها كانت من الروايات الجيدة أيضًا لكن ثمة توهان ربما يحسه القارئ حين يتوغل في قراءتها.

رواية ساعي بريد نيرودا، في الحقيقة رواية قصيرة. ذلك الحجم من الروايات الذي يستدعيك لقراءته، في زمن قل فيه الوقت المخصص للقراءة بسبب ما طرأ على الدنيا من تغير، لكنها تمتلك نفس المواصفات التي اعتدنا عليها في أدب أمريكا اللاتينية، أي نفس السحرية القائمة على

توظيف الخيال، ودمجه بالواقع، بحيث يصعب في النهاية التفريق بينهما، لمن يغوص عميقًا في قراءة النص، ويلتحم معه، وبالتالي كل ما هو خيالي، هو واقع والعكس، ولأني من كتاب الخيال في جميع أعمالي، وتأثرت بالأدب اللاتيني في بداياتي، فأنا كقارئ أحتفي بهذا النوع من الكتابة أكثر من غيره، وهناك قراء لا يحبون هذه الطريقة، ويودون أن يكتب لهم الواقع كما هو، أو لعلهم يحبون تلك الأعمال القائمة على الفلسفة والتأمل، وهذه أذواق قرائية كما أردد دائمًا، ولا أعتقد أن ثمة دخلًا لجودة الأعمال من عدم جودتها فيها.

إذًا الشاب ماريو خمينث الذي يعيش في قرية الصيادين في تشيلي، والتي هي أيضًا مقر إقامة للشاعر الشهير: بابلو نيرودا، يعثر أخيرًا على وظيفة ساعي بريد مخصص للشاعر نيرودا، الشخص الوحيد في القرية الذي تصله رسائل من الخارج، بشكل يومي وكثيف. رسائل من ناشري كتبه العديدين، من صحف ومجلات تود محاورته، من معجبي ومعجبات، من لجنة جائزة نوبل التي تدرس إمكانية منحه الجائزة في أحد مواسمها.. هكذا، وبالتالي يعمل ماريو بصورة يومية، راكبًا دراجته المحملة بالرسائل، من مكتب البريد إلى بيت الشاعر الذي يقع على البحر.

ما لفت انتباهي، وأعتبره إدهاشًا حقيقيًّا، إن الكاتب لا يصور لك بابلو نيرودا، وهو أكبر شاعر في تشيلي في تلك الأيام وربما إلى الآن. تصويرًا مبالغًا فيه كما لو صورنا

مبدعا بحجمه أو حجم أقل منه كثيرًا، في الوطن العربي. لقد صوره كإنسان فقط، إنسان عادي، يفتح باب بيته بنفسه، يفتح قلبه للقرية، ورئتيه لالتقاط هواء البحر المشبع بهواء أنفاس البسطاء، ويتعامل مع ساعي البريد البسيط، ببساطة أشد. يحاوره في الشعر، ويحدثه عن أفضل صياغات للقصيدة، ويستجيب لرغباته في التوسط له من أجل خطبة فتاة جميلة في القرية أحبها، ببساطة شديدة، واضعًا في حساباته كل الخسائر، بما فيها أن تطرده والدة الفتاة.

لقد رسم لنا الكاتب لوحة مجيدة للشاعر الشعبي الذي يعيش وسط الشعب، في قرية شبه أمية، يقطنها الصيادون، يعيش بلا بريق ولا رفاهية، ولا جيش من النقاد والمهتمين، يتحاوم حوله، ولا فعاليات تدعم نجوميته. كان الناس يعرفون أهميته جيدًا، ومع ذلك يتركونها بلا نبش، لا أحد يزعجه، أو يلتصق به، مقيدًا حركته الإبداعية، حتى ساعي البريد وبرغم أنه أصبح في النهاية، ومن أثر الاحتكاك اليومي، صديقًا للشاعر، إلا أنه واجه حرجًا كبيرًا في البداية، من أجل أن يطلب منه مجرد التوقيع على كتاب له، اشتراه من أجل أن يحصل على التوقيع..

يتضح في الرواية، جمال العلاقة الإنسانية بين الشاعر وساعي البريد، في مواقف عدة، حين يتبادلان الاستعارات، بعد أن تعلمها ماريو خمينث، حين يتحدث الشاعر نيابة عنه لوالدة الفتاة التي يحبها، متوقعًا أن تحرجه، وحين

يسافر الشاعر سفيرا لدولته في باريس، بعد فوز الاشتراكيين في الانتخابات، وتقلد سلفادور أليندي، مهمة رئاستها.

لقد كانت باريس غريبة للشاعر، وهو يحن إلى البحر وبيته في قرية الصيادين، ويرسل لماريو جهاز تسجيل ياباني، يطلب منه أن يسجل له كل الأصوات التي كان يسمعها في القرية، ويرسلها له هناك، من أجل تخفيف الغربة عليه، وعودة الإلهام لقصيدته. وبالفعل ينفذ ماريو ذلك الطلب. وحين تأتي الأخبار بمنح نيرودا جائزة نوبل في الآداب، يقيم ماريو احتفالًا كبيرًا وضاجًا في القرية، التي تتجمع لتشاهد الشاعر في التلفزيون، يلقي كلمته المؤثرة في أكاديمية نوبل، وتصبح كلماته داعمًا معنويًّا كبيرًا للقرية.

الرواية تتعرض كذلك، وبشيء من التحفظ، أو لأقل بشيء من التكثيف، لمأزق الحكم في تشيلي، في فترة زعامة سلفادور أليندي، وهو مأزق متوقع ومعتاد في كثير من البلاد التي لم تكن الحياة فيها سهلة في يوم من الأيام، ودائمًا ما تذكرني أجواء أمريكا اللاتينية، وبيئتها، بأجواء بلادنا وبيئتها، حقيقة أجد تشابها كبيرا، وما زلت أذكر مشهد الطبيب العائد من فرنسا، في رواية الحب في زمن الكوليرا لماركيز، حين نزل إلى الميناء من الباخرة التي حملته، وشاهد النساء الفقيرات، والأطفال الذين يسيل المخاط على أنوفهم، ولعن في سره ذلك الحنين الذي أعاده مرة أخرى. هذا المشهد وغيره من مشاهد البؤس في كل العالم الفقير، يتكرر بلا شك في الأعمال الإبداعية.

إذًا رواية ساعي بريد نيرودا، رواية بسيطة، وسهلة، وكما قلت، قد حفلت بالخيال الكثيف كدأب أدب أمريكا اللاتينية كله، فقط هناك إحساس لدي بأنها لم تكمل، وكان يمكن أن تمتد أكثر، جالبة متعة أكثر. كما أن هناك أحداث تم اختصارها بشكل لم أفهمه، مثل أن يجد القارئ طفلًا شقيًّا لماريو خمينيث، ولم تكن ثمة مقدمات كافية توحي بوجوده.

كتابة المعرفة

من الكتب الجيدة، التي أعتبرها كنوزًا، ويتملكني الفضول لقراءتها دائمًا، تلك التي أحس بأنها تحمل داخلها المعرفة، أو ربما تمنحني إحساسًا جديدًا منعشًا، يطغى على إحساس روتين القراءة والكتابة. ولذلك أحب كتب التاريخ وأسعى لامتلاكها وقراءتها متى ما عثرت على وقت، أحب السير الذاتية، تلك التي كتبت عن أشخاص معروفين أو غير معروفين، أو أوطان أو تحدثت عن زمن ما لم أعشه، ولا أستطيع تخيله بلا مساعدة، ولطالما أعجبتني على سبيل المثال معظم الروايات التي تحدثت عن الحرب العالمية الثانية، وأحسست بأنها كانت أصدق في تجلياتها من الوثائق الرسمية لتلك الحرب.

من ذلك المنطلق، غرقت في كتاب بجعات برية للمؤلفة الصينية: شونج شانج، الذي صدر مترجمًا في عدة طبعات عن دار الساقي- بيروت، وكتب على غلافه: إنه دراما الصين العظيمة. وكان عبارة عن سيرة ملحمية لحياة ثلاث نساء صينيات، عشن بالطبع في عصور مختلفة، هن: جدة الكاتبة وأمها وهي شخصيًا، مكتوبًا بنفس روائي شيق، جذاب لا يخلو من الطرافة في كثير من صفحاته، والسعي

لشد القارئ للغوص فيه برغم ضخامة حجمه.

على أن تلك السيرة الطويلة، لم تكن سيرة شخصية بحتة كما يمكن أن يتصور البعض ولكن زخمًا حكائيًا يتحدث عن الصين حين كانت في قبضة الشيوعيين، عن الحكم الصينية والأمثال المتداولة، والمجتمع بخيره وشره، عن الحروب والمنازعات والجوع والشبع، وكيف كانت المرأة تحيا في ذلك المجتمع الغريب، أقصى طموحها أن تصبح جارية لأحد الأعيان، وتربط قدميها وتشد منذ الصغر، حتى لا تنموان، لأن صغر القدم إحدى مواصفات الجمال المهمة. وكيف أن الكلام في شئون الحب بين العشاق، كان يستلزم إذنًا من السلطة، بكتاب رسمي.

كذلك كيف كان يتصرف الآباء بالتقرب للأعيان، من أجل أن تحظى بناتهم بشرف أن يصبحن جاريات، وبالنسبة للرجل، فإنه يزداد هيبة، ويزداد احترام المجتمع له، كلما كثر عدد جارياته.

مثل هذا النوع من الأعمال، في رأيي، ضروري جدًا لا لإشباع لهفة القراءة فقط، بل أيضًا لإشباع جوع المعرفة نحو حضارات نعرفها سطحيًا ولا نعرف عنها الكثير في الواقع، وأردد أن الروايات هي التي تدخلنا تلك العوالم بسهولة لأنها تكتب بطريقة أدبية مشجعة على القراءة. وقد كنا نحيا داخل وهم التحرر والعدل والمساواة الذي ساد عالمنا في فترة من الفترات حين كانت المذاهب الاشتراكية موضة يتبعها الكثيرون وإلى أن انهار ذلك الوهم

بسقوط الاتحاد السوفيتي أوائل التسعينيات من القرن الماضي، وتلته عدد من الدول التابعة، والآن الصين نفسها نعرف جميعًا، أنها تخلت عن حدة الطبع القديمة، وباتت دولة عصرية لها بصمات سياسية، وتجارية واقتصادية مهمة، ولها سلع تتوغل في عمق المحيط التجاري لكل دول العالم، لدرجة أن الهواء الذي نتنفسه، يوشك أن يصبح صينيًّا هو الآخر..

هذا ما أسميه: كتابة المعرفة.

أن تكتب عن عالمك المجهول للآخرين بكل ما يحويه من حلو ومر، ولا تجمل صورته لأحد، أن تفتح باب بيتك المغلق للراغبين في الدخول، تبقيهم لديك ساعات أو أيامًا، وحين يخرجون يلمون بكل شيء. ودائمًا ما تأسرني كما قلت مثل هذه الروايات أو السير المكتوبة بحبر الروايات الرشيق، لأنها تتماشى مع هذا المبدأ.

الأمر الظاهر هنا، أي في بجعات برية، هو حكاية الجدة التي أصبحت بسبب طمع الأب، جارية غير مسموح لها بالحياة الطبيعية، لجنرال متعدد الجواري، وأنجبت منه فتاة، وفرت حتى تحتفظ بالفتاة بعيدًا عن زوجة الجنرال الوحيدة، لأن العرف يقضي بأن تعيش الفتاة لدى الزوجة، بعيدًا عن أمها الجارية. ثم حكاية الابنة التي عاشت في زمن ماو تسي تونج الصعب، حين كانت الصين سجنًا محروسًا بالمبادئ العقيمة، والحفيدة التي تعيش الآن وتكتب بجعاتها البرية، ولكن الأمر غير الظاهر بالتأكيد،

هو حكاية بلاد بعيدة، وحضارة تغيرت عشرات المرات، وتعثرت وقامت، لتصبح حضارة ذات مغزى وبصمات خالدة في النهاية.

وإذا كان كتاب: بجعات برية، قد تُرجم لعشرات اللغات، وقرأه الملايين حول العالم، كما ذكر عنه، فأنا لا أستغرب ذلك قطعًا، فالكل يود أن يعرف شيئًا عن تاريخ الصين لا من كتب التاريخ المتعددة والمتشعبة ولكن من خلال سيرة أو رواية، لأن الكتابة الإبداعية في رأيي، بما فيها من بهارات، ولغة أدبية متميزة، وبعض الخيال الضروري لشحن الكتابة، يمكنها أن تشد القارئ أكثر، وتغرسه في سكة القراءة. وأنا شخصيًا أميل إلى أن كتاب البجعات، كان في أغلبه بحثًا وإعادة صياغة راقية للحقائق، ولا أظنه رواية، أي خيال صرف، ولكن ربما طعم ببعض الخيال.

في عالمنا العربي، كثير من هذه الكتب التي تحمل في ظاهرها الحكاية، وفي باطنها المعرفة، وما كتبه العظيم نجيب محفوظ، كان أبوابًا تم فتحها على الحارة المصرية، في زمن ما لتنقل لنا معرفة كبيرة، كذلك كتابات يحي حقي وتوفيق الحكيم عن الريف المصري، وآخرين تحدثوا عن بلدانهم بكل صدق، ورسخوا مفاهيم كتابية راقية، ثم أتت الأجيال الجديدة من الكتاب، لتضيف المتغيرات التي حدثت في تلك الأوطان. ولعل روايات الطيب صالح التي كتبها عن ريف شمال السودان، مثل عُرس الزين، برغم صغر حجمها، هي روايات الاكتشاف الأولى، التي ولج

عبرهـا القـارئ الغريـب إلى السـودان عامـة، وريفـه خاصـةً.

إذًا لنقـرأ جميعـا المعرفـة الكامنـة في كتـب الحكايات والسـيرة الشـخصية لأصحابهـا مثـل كتـاب بجعـات بريـة وغيرهـا مـن الكتابـات العظيمـة.

غارسيا ماركيز..
الكتابة والإدهاش

تقول الكاتبة التشيلية المعروفة إيزابيل أليندي، في حوار معها عن جابرييل ماركيز عشية رحيله: إن قراءة روايات جابرييل ماركيز، كانت تمنحني متعة بلا حدود، لكنها لم تكن تدهشني إطلاقًا، كوني مواطنة من أمريكا اللاتينية، ولدت وعشت فيها زمنًا، ذلك ببساطة شديدة، إن ماركيز كان يكتبنا نحن اللاتينيين، يكتب حياتنا كما نعيشها بكل مافيها من خير وشر.

هذا الكلام قد يكون صحيحًا، وأيضًا يحمل شيئًا من المبالغة في رأيي، فالعوالم شبه البدائية مثل عوالم أمريكا اللاتينية، وأفريقيا، وبعض الجزر المستقلة هنا وهناك بسكانها ومجتمعاتها المحدودة، خاصة في عصر ما قبل التقنيات الحديثة التي كانت في حد ذاتها معجزة، واختصرت العالم بشدة، لا بد توجد فيها كثير من الأساطير التي شكلت وجدان الناس، وانزاحت إلى حياتهم اليومية المعتادة.

لا بد توجد خرافات ما، يعتقد البعض في حقيقتها، وبالتالي لن تدهشه إذا ما قرأها في رواية، أو شاهدها في

شريط سينمائي، ولكن يمكن أن تدهش شخصًا آخر، لا يشبه تلك العوالم ولا يعرف عنها شيئًا. وسيسعى ذلك الغريب إلى مزيد من المعرفة بالبحث عن إنتاج الدهشة ذلك، وبالتالي يصبح الإدهاش هنا، بابا سهل الفتح، تخرج منه المعرفة، لمن أرادها.

الغجري ملكيادس، في مئة عام من العزلة، مات في أحد الأيام واختفى عن الحضور إلى ماكندو، لكنه يظهر ذات يوم بعد أن عاد إلى الحياة، ليحكي عن ذلك العالم الغامض الذي زاره وعاد. هذا شيء يدهش، وبعيد عن المنطق بالتأكيد، لكنه لن يكون مدهشًا للذين يعتقدون في إمكانية حدوث ذلك، من سكان المجتمعات المغلقة، في الأرياف، وبلاد العالم الثالث كما ذكرت، وأذكر أن هذا المعتقد كان سائدًا في القرى في السودان في فترة ما، وحين كنا صغارًا نزور قريتنا في الشمال، نستمع كثيرًا لمثل هذه القصص من سكان القرية، وإن شخصًا ما عاد من الموت، وهو يتحاوم ليلًا في البلدة، وربما يؤذي أحدًا، وبالتدريج ومن كثرة تردد مثل هذه القصص، تتشكل في الوجدان ما أسميها مقاومة الدهشة، التي ستسيطر بعد ذلك.

أذكر أيضا تلك المرأة الغريبة التي كانت تقيم في عشة من القش، قريبًا من منزل أهلنا في القرية. لكنها تحتفظ بحياة منعزلة تمامًا، ظلت محورًا للتخمين. كنا نراها في النهار عادية جدًا، تصافح الناس وتتحدث معهم، ويمكن أن تدخل بيتًا لدقائق وتخرج، ويمكن أن تستلف ملعقة

مـن ملـح أو سـكر، لكنهـا تشـتعل بحيـاة أخـرى في الليـل، حيـث نسـمع صياحهـا وضحكاتهـا، ونسـمع أو يخيـل إلينـا أننـا نسـمع أصـوات أخـرى تحدثهـا، ونـرضى بمـا يُقـال عنهـا، وهـو أنهـا متزوجـة مـن جـني يزورهـا في الليـل. ويظـل هـذا الـرضى مسـيطرًا عـلى عقولنـا إلى أن تختفـي الدهشـة تمامًـا.

لقـد اسـتوحيت حيـاة تلـك المـرأة، وقصتهـا الغريبـة، في روايـتي: اشـتهاء، وأنـا عـلى يقـين بـأن الـذي سيندهش، إن كان ثمـة اندهـاش سيحدث، ليـس القـارئ الـذي عايـش مثـل تلـك الحكايـات، ولكـن قارئـًا بعيـدًا، قـد تسـوقه المصادفـة لقـراءة اشـتهاء، وعـلى نفـس نهـج قصـة تلـك المـرأة الـتي كان اسـمها: بنـت عيـسى، يوجـد كثـير مـن القصـص الـتي تهـم الكتابـة، ويمكـن أن يسـتلفها الخيـال ويطـور منهـا ويُعيـد إنتاجهـا قصصًـا مدهشـة، ستدهش البعـض كمـا ذكـرت، ولـن تدهـش مـن اعتـاد عـلى مثلهـا.

أنـا كنـت وسـأظل وفيًّـا لعشـقى لجابرييـل ماركيـز، ومعظـم مـن كتبـوا أدبـًا في أمريـكا اللاتينيـة، وإسـبانيا، وفيًّـا لخيالهـم الـذي يأخـذ مـن بيئـة بدائيـة شـبيهة ببيئـتي، وسـأردد مـا قالتـه إيزابيـل الينـدي، إنـني لـم أكـن أندهـش بقـدر مـا كنـت أسـتمتع بـكل كلمـة أقرأهـا، وكل مشـهد بديـع يصـوره واحـد مثـل ماركيـز، ستدهشـني أشـياء أخـرى، تدهشـني اللغـة المسـتخدمة، المفارقـات، المواقـف الـتي فيهـا طرافـة، وأيضًـا الفكـرة الـتي ينبـني عليهـا النص. ولطالمـا قلت إن النـص الناجح هـو في البدايـة فكـرة صغـيرة تتكـون بـلا إرادة مـن الكاتـب،

وتمتلك القدرة على النمو الخارق، ومن ثم السيطرة على كل حواسه، حتى يخرجها نصًا، أيضًا الشخصيات بكل ما فيها من نزق وحكمة، وقار أو ابتذال، ذلك أنها شخصيات حقيقية، موجودة وما على الكتابة الجيدة، سوى أن تنفض عنها غبارها، وتهندمها وتوظفها في النصوص، وقطعًا ستملأ الوظيفة بلا جدال.

حقيقةً لن أنسى من كتابة ماركيز، شخصيات مثل المصور الفوتوغرافي في رواية: الحب في زمن الكوليرا، الذي انتحر وهو في ثمانينات العمر، لأنه لم يرد أن يشيخ. الإبهار هنا يأتي من كون الرجل كان شيخًا بالفعل.

شخصية أخرى مثل الغريب في رواية أحداث موت معلن، الذي جلس على مقعد أمام النزل، مرهقًا ويود أن ينام، ومرت فتاة جميلة، فقال لصاحبة النزل: سأنام قليلًا، وحين أستيقظ، ذكريني بأنني سأتزوج هذه الفتاة. الإدهاش هنا يأتي من توظيف الطرافة، بهذه البراعة. هنا لا يوجد كاتب يلوي ذراع ذهنك ووقتك حتى تقرأ ما يكتب، ولكن يوجد ساحر صاحب نداء غامض، يناديك، وتلبي النداء طائعًا.

لقد ذكرت مرة في حديثي عن سيرة ماركيز التي كتبها بعنوان: عشنا لنحكي، أو لعله عنوان شبيه بذلك وتختلف ترجمته عن الإسبانية، من مترجم لآخر، إن تلك السيرة بالرغم من كونها سيرة حقيقية للكاتب، إلا أنها لم تستطع الإفلات من بهاراته وكتبت بطريقته المعروفة في شد

القـارئ، مهمـا كان انشـغاله.

إذًا ماركـيز كان يدهــش مـن لا يعـرف عوالمـه أو العوالـم الشـبيهة بعوالمـه، في العالـم الممتـد، ويمتـع الـكل ممـن يعرفـون عوالمـه أو لا يعرفونهـا. أنـا مثـل إيزابيـل أليـندي، عشـت سـنوات قـراءتي الأولى مـع المتعـة الماركيزيـة، وحـتى الآن أعـود مـن حـين لآخـر لروايـتي المفضلـة: الحـب في زمـن الكولـيرا، أقرأهـا بنفـس المتعـة الـتي قرأتهـا بهـا في الثمانينيـات مـن القـرن المـاضي. ولا أسـتطيع أن أتخيـل أن ذلـك الحـكاء العظيـم هـو نفسـه الـذي شـاهدت علبـة عـلى طاولـة، قيـل إنهـا تحمـل رمـاده. بالنسـبة لنـا نحـن عشـاق الأدب، والمـرضى بجرثومتـه، فـإن القـراءة بـلا ماركـيز، تبـدو ناقصـة كثـيرًا.

أسئلة الكتابة

طرح علي عدد من القراء، في رسائل شخصية، سؤالا أعتبره في غاية الأهمية، ويمكن أن يكون قد طرح عليّ غيري من المنتسبين إلى عالم الكتابة، كثيرًا من قبل، لكن طرحه الآن في زمن الإنترنت وسطوتها، وتداعيات ثورات الربيع العربي، والحياة المادية والتكنولوجية، المسيطرة على الجميع، يصبح في رأيي الشخصي، أكثر أهمية، ولن تكون الإجابة قطعًا، كما لو أنه طرح في ستينيات أو سبعينيات، أو ثمانينيات القرن الماضي، حين كانت الكتابة هي كل الترفيه الذي يمكن أن يحصل عليه أحد.

السؤال: لماذا نكتب؟

الحقيقة أن كثيرين من الذين يكتبون، سواء أن حصلوا على فائدة من الكتابة، أو لم يحصلوا على الإطلاق، يتغاضون كثيرًاا عن طرح مثل هذه الأسئلة المتعلقة بالكتابة، بوصفها قد تكون أدوات إحباط كبرى، لو حاولوا أن يعثروا على إجابات لها.

الكاتب يريد أن يكتب بحرية، بلا أسئلة ولا أجوبة، ولا بمن يذكره بأن هناك جدوى من الكتابة، أو عدم جدوى

على الإطلاق، هناك أشياء تفور في أعماق الناس، ويودون أن تخرج، وغالبًا ما يكون الخروج ذلك كتابة، لأنها الوسيلة الأسرع والأخف، وفي متابعاتي المكثفة للصفحات الثقافية، ومواقع الإنترنت المتعددة، وموقعي تويتر، وفيس بوك الجاذبين للكل أكثر، أجد أن قطاعات كبيرة من الناس تكتب، لا يهم ما يكتبون ولمن يكتبون، وإن كانت الكتابة تصل لأحد أم لا؟ ولكنهم مستمرون في الكتابة. تجد كتاب القصة، وكتاب الشعر والرواية، وكتاب الخواطر السريعة، وبعض عبارات فلسفية أو عاطفية مستلفة من هنا وهناك، أو مؤلفة من البعض، وتجد تعليقات الاستحسان غالبًا، وفي المواقع التي تتيح للقراء فرصة أن يعلقوا على مقال قرأوه، مثل موقع الجزيرة نت، ومواقع معظم الصحف العربية اليومية، تجد قراء يكتبون كلامًا كثيرًا، وفي أحيان كثيرة، لا تكون تعليقاتهم مختصة بالمقال المتصدر للصفحة، إنما يخترعون كتابة أخرى، من أجل أن يكتبوا.. وهناك أسماء من كثرة ما نصادفها، أصبحت راسخة في أذهاننا، مثل واحدة اسمها سلوى، لا تترك موضوعًا في موقع ما، إلا كتبت تعليقها عليه، وقارئ آخر تخصص في البحث عن الأخطاء التحريرية في المقالات، ويقوم بتصويبها بحسب رزيه، لكنه أثناء عملية التصويب تلك، يكتب أشياء كثيرة، يود لو قرأها الناس.

وبالنسبة للكتاب الذين عبدوا طريقهم في سنوات طويلة، وأصبحت لهم مكانتهم الكبرى في هذا المجال، مثل بعض

الروائيين وكتاب القصة القصيرة، فإنهم يتلقون عشرات الرسائل وعشرات المخطوطات يوميًا، من كتاب حديثي العهد بالكتابة، يبحثون عن ضوء أخضر، وعن غطاء كبير، يقرر لهم مشروعية كتابتهم، حتى يستمروا بمعنويات أفضل، وهكذا نجد الدنيا كلها تكتب، لكن بفروق واضحة، الفروق التي تجعلني أطرح سؤالًا آخر:

من هو الكاتب الجدير بأن يكتب؟

بالنسبة للسؤال الأول، أي سؤال الكتابة، ليست هناك إجابة محددة مهما اجتهدنا في البحث عنها، وأستطيع أن أقول بأن الكتابة الملهمة، جزء من تركيب شخصية بعض الناس، ولدوا بها واستمروا بها، ودائمًا ما تجد تاريخًا يعود إلى زمن الطفولة، والدراسة المبكرة، يرسم هؤلاء الأشخاص، تلاميذ واسعي الخيال، يطاردون الكتب، يحكون قصصًا خيالية، لم تحدث، ويحصلون على درجات جيدة في حصص الإنشاء التي تستوجب تفعيل الخيال، وغالبا ما يوصفوا بأنهم كذابين، وتجد هؤلاء بعد أن كبروا قليلًا، قد صاغوا خواطر عاطفية، أو كتبوا الشعر والقصة، وحولوا العلاقات العابرة في محيطهم الضيق، إلى مواقف مصاغة بفن، يقرأونها على زملاء الدراسة بانتشاء ثم يسعون بعد ذلك للنشر الموسع. ونادرًا جدًّا أن تجد كاتبًا طرق تلك السكة، بعد أن كبر وتكونت شخصيته، وهنا أيضا أقول بارتياح، إن ثمة جرثومة مبدعة، تعشش في الدم، ولا تخرج أبدًا، لكن وقت ظهورها ربما يتأخر عند البعض، أو

تحجبها مشاغل معينة وأولويات، عن الظهور. وكلنا يعرف أن كاتبًا عظيمًا مثل البرتغالي جوزيه ساراماغو، بدأ الكتابة متأخرًا، أي بعد تجاوزه لسن الأربعين، وكان يقول بأنه لو مات في سن الستين، لما ترك أي أثر يذكر. وهناك آخرون شبيهون بساراماغو، تجدهم في أي ثقافة من الثقافات. وأعرف شخصيًا كاتبًا عربيًا جيدًا، بدأ الكتابة بعد سن الخمسين، ونجحت روايته الأولى، وكان ذلك محفزًا لكتابة غيرها.

أعود إلى سؤالي الثاني، عن جدارة الكتابة من عدمها، فأقول بأنني أعتقد بكل أمانة، أن الكاتب الجدير بأن يستمر في الكتابة، ويصنع له قاعدة قراء تتابع ما ينتجه، ويدرج في حوارات صحفية، ولقاءات مذاعة ومتلفزة، ويستعان به في محاضرات عن الكتابة، وغيره، هو الكاتب الذي يستطيع أن يميز بسهولة من وسط ذلك الكم الهائل من عشاق الكتابة، بلا مقدرات حقيقية. الكاتب الذي يستطيع أن يرسم عالمًا غير مسبوق، يكتب بلغة غير متداولة، ويخرج من محك التكرار والوقوع في فخاخ التأثر الكبير الواضح بآخرين، وتشير إليه كتابته، في أي وقت لتقول بأنني كتابته.

الآخرون أعتبرهم قراء مواكبين، أو كتّابًا تحت التدريب، حتى ينالوا ثقة اللغة التي يكتبون بها، وتلك الساعة، لن يقف في طريقهم أحد.

الشارقة والكتاب

هنـاك مـدن عربيـة وغربيـة، تحمـل في دمهـا وتكوينهـا دائمًا صفات معينـة، تُعـرف بهـا، أو ترتبـط في ذهنيـة النـاس بهـا، ولا أدري هـل ارتبـاط مدينـة الشـارقة بالكتـاب إحسـاس عـام لـدى معظـم مـن يعرفهـا، أم لـديّ وحـدي؟ لكنـي وبـكل تزمـت أرى أن الشـارقة فعـلًا إحـدى أهـم عواصـم الثقافـة الدائمـة، فيهـا يتنفـس الكتـاب بحريـة، ويجـد مـن يتعـرف إليـه ويتقـرب منـه ويرتبـط بـه روحيًّـا. ولذلـك دائمـا مـا تجـد ازدحامًـا رائعًـا عـلى اقتنـاء سـلعة الكتـاب، في وقـت انعقـاد المعـرض السـنوي، الـذي بلـغ هـذا العـام (2014) ثلاثًـا وثلاثـين مـن العمـر، ويـزداد كل عـام شـبابًا وتألقًـا. الكتـاب هنـا بالفعـل، سـلعة متداولـة بعمـق، سـلعة متعـددة أماكـن الصنـع، ومتوفـرة بشـتى المواصفـات ولـكل الأعمـار والأذواق، وأيضـا سـلعة كلاسـيكية بحتـة، وسـلعة تكنولوجيـة متطـورة، داخـل أقـراص مدمجـة. وإن كانـت معظـم معـارض الكتـب في العالـم العـربي، تتبـع تلـك المواصفـات الخاصـة نفسـها بتسـويق الكتـاب، الآن، مـن ناحيـة توفـير أماكـن العـرض المريحـة، وعقـد فعاليـات مصاحبـة للمعـارض، تتـم فيهـا مناقشـة الكتـب وكل مـا يتعلـق بصناعـة الكتـاب، إلا أن لهفـة الشـراء الـتي شـاهدتها، وقـدوم

أصدقاء الكتب من خارج الإمارات من أجل التنزه المعرفي في الشارقة، يمنح تلك المدينة امتياز أن ترتبط بالكتاب، وتصبح من مدنه الوفيَّة.

في إحدى السنوات، أطلقت في المعرض مبادرة، ترجمة الأدب العربي للغات أخرى، بدعم من الشارقة، وعقدت لقاءات بين ناشرين عرب، وناشرين أجانب من أجل أن تعبر عدد من الكتب الأدبية وغير الأدبية المهمة، إلى الآخر، كما تعبر كتب الآخر إلينا. كانت تلك مبادرة سخية بلا شك، أن تتولى مؤسسة عربية رسمية تمويل ترجمة الكتب، لكن لا أعتقد أن الأمر كان ناجحًا تمامًا، رغم عبور عدد من الكتب التي رشحت، إلى لغات أخرى، من ضمن تلك المبادرة، ذلك ببساطة أن الأمر كان بين الناشرين للكتاب العربي، وناشرين أجانب محتملين لترجمة الكتاب، ولن يكون بيع الحقوق أمرًا عاديًّا، لأن الناشر العربي لن يترك مؤلفًا يعبر بلا قيود. إذًا مبادرات كتلك تحتاج فعلًا لثقافة خاصة، لحس وطني كبير، للإيمان بضرورة أن تُعرف آدابنا خارجيًّا، مثلما عُرفت آداب الخارج عندنا، من دون التفكير في مصالح تجارية خارقة، ووضع شروط للذين جاءوا لشراء الحقوق، لن تتفق وحس المغامرة الذي غامروه بتوجههم نحو كاتب وكتاب عربيين. في سنة أخرى، حدثت مبادرة تكوين مكتبات للأسر، أو بالأصح، نواة لمكتبات في البيوت، قد تتسع في ما بعد، تشجيعا لفعل القراءة، وربط الأجيال الجديدة التي ولدت في زمن لم تترك فيه التكنولوجيا الحديثة مزاجًا لأحد حتى يقرأ،

وأنا شديد التأكد من أن تلك الكتب التي سهلت المؤسسة الرسمية مهمة اقتنائها، وأوصلتها حتى البيوت، لم تكن عبثًا في بيت أحد، ولم تكن مجرد ديكور موضوع للفرجة فقط. مؤكَّد هناك مَن نبش تلك السلعة، ومَن قرأ منها ومَن استفاد أيضًا، ومَن طوَّر من تلك النواة لتصبح صرحًا قرائيًّا كبيرًا. لعل كثيرين، يعبرون بممرات معارض الكتب في سعيهم للفرجة أو الاقتناء، لا ينتبهون كثيرًا لتلك الفعاليات المتنوعة التي تصاحب المعارض. هناك في الغالب قهر لتلك الفعاليات، بوضعها في أماكن طرفية بعيدة عن طرق الزوار، في عدم الإعلان عنها بوقت كاف، وبطريقة موسعة، وبأخبار عريضة، حتى يطالعها معظم الناس.. إضافة إلى القاعات التي تعقد فيها، وهي في الغالب، قاعات صغيرة خانقة للضيف ولمن أتى ليحضر فعاليته، في الوقت نفسه. وأذكر أنني كنت ضيفًا في معرض عربي، وتاهت مشاركتي لوقت طويل في التنقل من مكان لمكان، بسبب عدم دراية أحد أصلًا بالمكان، وعدم وجود جمهور لحضورها، إلى أن وضعت تحت الأنظار في وسط المعرض، ومن ثم جذبت عددًا كبيرًا من الزوار لحضورها. هذا العام ٢٠١٤ كانت فعاليات الشارقة متنوعة جدًّا، ليس موضوع آداب أو أشعار تُلقى وحسب، ولكن حتى الفن والسياسة والجمال، تمت مناقشته في ندوات، وجاء كتاب غربيون كبار ربما لأول مرة، في الوطن العربي، ليلتقوا بجمهور يعرفهم جيدًا ولا يعرفونه، وأظن وجود عادل إمام كفنان كبير، كان داعمًا جيدًا لنشاط المعرض، ووجود «دان براون» كنجم كتابي من

نجوم الغرب وصل صيته إلينا منذ «شيفرة دافنشي»، كان داعمًا أيضًا، إلا أن وجود كتّاب آخرين معروفين بشدة في الغرب، ولا نعرفهم هنا بسبب نقص الترجمة لهم، وعدم إعطاء تعريف كبير يشبههم، قلّص من معرفة الجمهور بكاتب مثل السيرلانكي البريطاني، روميش غوديسكرا، وهو أحد معلمي الكتابة المعروفين، وكان من أوائل الذين حلوا في القائمة القصيرة، لجائزة مان بوكر العالمية، منذ عشرين عامًا. أيضًا الجزائري الذي يكتب بالفرنسية ياسمينة خضرا، كان موجودًا لكن قليلين من كانوا يعرفون عالمه، بسبب عدم وجود ذلك العالم متاحًا باللغة العربية، ولا أعرف إن كانت تُرجمت له أعمال باستثناء «سنونوات كابول»، التي كتبها عن أفغانستان في زمن حكم الطالبان، بتعجُّل كما بدا لي، ولم تكن في رأيي، هي الرواية المناسبة للدخول إلى عالمه.

إذًا لا بد من دراسة تلك الفعاليات جيدًا، وأعني هنا وضع جميع احتمالاتها، والدعاية لها بشكل أكبر، خاصة إن استضافت مبدعين يحملون بريقًا بعيدًا، ولا يعرفهم جمهورنا. لا بد من زيادة وقت المداخلات حتى لا يخرج المشارك وفي حلقه بقايا من تداخل مهم لم يحدث. فقط ورغم كل شيء، فإن الشارقة ستظل إحدى مدن الكتاب المخلصة ومناراته المضيئة...

نصوص لن تكتب

منذ سنوات طويلة -وبالتحديد أيام كنت طالبًا في المرحلة الثانوية بعيدًا عن سكك الرواية- كنت أكتب شعر الأغنيات وأزهو به وسط زملائي أو في حفلات الأعراس حين يردد مغن ما إحدى قصائدي ملحنة، تعرفت إلى كاتب روائي شاب آنذاك.

كان هذا الشاب منغمسًا في كتابة رواية كما قال، يردد اسمها في كل وقت، ويحكي جانبًا من أحداثها التي تدور في مدينة بورتسودان بتسلسل غريب وتشويق ومتعة كبيرة، ولدرجة أنني كنت أتشوق إلى ملاقاته للاستماع إلى حدث جديد داخل روايته التي يكتبها، ولا يعرف أحد متى تنتهي وتنشر لتقرأ كاملة بدافع ذلك التشويق الكبير.

لكن السنوات طالت، والأيام تمددت بخيرها وشرها، وانغمست أنا في كتابة الرواية بعد ذلك، وظهر آلاف الروائيين في الوطن العربي، وغرقنا في طوفان من الروايات، ولم تظهر رواية ذلك الشاب القديم التي كان يكتبها في نهاية السبعينيات من القرن الماضي، ولم تظهر أي رواية أخرى تحمل اسمه لأفاجأ منذ عدة أيام برسالة تحمل اسمه الذي لم أنسه قط، وفيها يخبرني بأنه يكتب رواية،

وسيرسلها لي للإدلاء برأيي، وكانت مفاجأة الاسم، إنه الاسم نفسه الذي كان متداولا مع التشويق في سبعينيات القرن الماضي.

وفي العام الماضي التقيت برجل مُسن، ربما كان في بداية الثمانينيات من العمر، يحمل على ظهره انحناء العمر، وتجارب كبيرة، ويملك ذاكرة خصبة إلى حدٍّ ما، حكى لي أنه يكتب رواية عن الحرب العالمية الثانية التي عاصرها مراهقا، وتأثيرها على العالم العربي، حكى مقاطع تبدو جذابة من الرواية، ولخص قصتها التي تبدو أيضًا على درجة من الجاذبية، لكن المفاجأة هي أن الرجل ذكر أنه بدأ كتابة هذه الرواية عام ١٩٤٩ ولم تكتمل حتى الآن، وأيضًا سيكملها ويرسلها لي من أجل أن أدلي برأيي.

وأثناء تجوالي في أحد معارض الكتب العربية التقيت بسيدة في الـ65 قرأت بعض أعمالي، كانت فصيحة ونشطة اللسان، وتملك ذاكرة حية تحمل الإرث والمعاصرة معا، وحكت كذلك عن رواية لها تكتبها منذ ثلاثين عامًا وتنتظر أن تكملها قريبًا، لترسلها من أجل إبداء الرأي.

هذه النماذج التي ذكرتها لكتاب مؤجلين، أو كتاب يحملون قصصًا موءودة قد تبدو غريبةً فعلًا، لكن لن تكون غريبة لو قسمت الكتابة إلى كتابة واقعية تكتب بالفعل في دفقة واحدة أو دفقات متعددة وتنشر في الكتب، أو كتابة حلم تكتب في الذهن، وتسرد على الآخرين، لكن هناك ما يعوق تحولها إلى واقع تحمله الكتب.

وقد صادفت كثيرًا من حملة الأفكار الجيدة والذاكرات الخصبة ولغة الحكي الرائعة التي يشيدون بها رواية في خيالهم، لن تكتب في يوم من الأيام لسبب بسيط هو عدم وجود مقومات الكاتب في معظم هؤلاء، فالأمر بالتأكيد ليس ذاكرة يعلق بها الجيد والرديء في الوقت نفسه، وليست أفكارًا غريبة أو خصبة تنثر في المجالس بسخاء، وليست أسماء أعمال روائية فيها من الإيحاء الشيء الكثير.

المسألة طويلة ومعقدة، بمعنى أن كتابة رواية في الواقع تحتاج أولًا إلى ثقافة كبيرة، تلك الثقافة التي تنتزع الأفكار من الذهن انتزاعا وترصفها في الورق، تحتاج بالقطع إلى صبر طويل شبيه بصبر المخترعين حين يحتجزون أنفسهم في مختبرات ضيقة وسجون اختيارية لينجزوا لنا اختراعًا سنستفيد به أو نلهو بفضله.

والذي يحتك بالمبدعين عمومًا، خاصة كتاب الرواية -باعتبارها الجنس الإبداعي الأطول والأكثر تعسفًا في سجن صاحبه- سيرى ملامح الوحدة والعزلة واضحة عليهم، سيرى المعاناة مؤطرة، وحين يحكون عن أفكارهم لا يحكون بمتعة كبيرة وإنما بتحسر كبير.

أعتقد أن أكثر من ثلاثين عامًا لم ينضج فيها نص فذلك يعني أن النص لن ينضج، أو بالأحرى ليس هناك نص ينتظر النضج حتى يقرأه أحد، والنص الذي ابتدأت كتابته في نهاية أربعينيات القرن الماضي حين كان الكاتب

شابًا، والشخوص ربما كانوا شبابًا أيضًا والأحداث طازجة في ذهن صاحبها تحمل سمات ذلك العصر ولم ينته حتى الآن لن ينتهي قطعًا أو لم يكتب أصلًا ببداية حقيقية لينتهي نهاية حقيقية.

قلت للسيدة صاحبة الذاكرة الحية والإرث الخصيب والرواية التي مرت على بدايتها ثلاثون سنة إنني أتمنى أن تكون هناك رواية، لكن لا أعتقد أنك ستكتبينها فعلًا، ربما تكونين قارئة جيدة ومثقفة تتفاعل مع نصوص الغير، لكن الكتابة عمل آخر فلم تقتنع برأيي.

وأقول للذين يحملون الأفكار حتى لو كانت جيدة فعلًا، ويطمحون لكتابتها أسوة بغيرهم ممن ملئوا ساحة الكتابة إن النص الباحث عن القارئ لا بد أن يكون نصًا مستبدًا، نصًا سجانًا، يعتقل كاتبه طوال فترة كتابته ولا يتركه إلا حين يدلق كل ما عنده على الورق، والنصوص التي تفرج عن صاحبها مبكرًا أو تعتقله بليونة شديدة ولا تعذبه تضيع في الأغلب مثلما ضاعت نصوص تلك النماذج التي ذكرتها، وعندي شخصيًا نصوص فرت باكرًا، وتركتني طليقًا وبذلك لم أكتبها، وسميتها نصوصًا مهملة.

المتتبع لحركة الكتابة محليًا في العالم العربي أو عالميًا يجد أن الكتابة طقوس وأسرار بعضها يبوح بها الكتاب وبعضها يبقى حبيس الصدور، لكن المحصلة هي أن الكتابة التي يريد صاحبها أن تخدمه بالفعل عليه أن يخدمها هو أولًا.

ما حقّقه دان براون وما حقّقناه

استضاف معرض الشارقة للكتاب في دورته الأخيرة، الكاتب الأميركي المشهور دان براون صاحب رواية شيفرة دافنتشي وغيرها من روايات البحث الثرية في مضمونها ومنحها للمعرفة، وأيضًا إيقادها الخيال في دروب مفخخة ووعرة، لم تكن مطروقة من قبل.

لقد قرأ الملايين في كل الدنيا تقريبًا -وبمعظم اللغات- روايات دان براون، وكانت ولا تزال من الأعمال التي تتبختر مختالة في سوق الكتاب، مقيمة تحت عناوين الأكثر مبيعًا دائمًا، وأذكر أنني شاهدت في العام قبل الماضي أمام مركز لبيع الكتب في ميلانو زحامًا شديدًا، استطلعته لأكتشف أنهم قراء اصطفوا هكذا، وسيقفون زمنًا طويلًا، من أجل شراء رواية الجحيم لبراون ورواية الأفغاني خالد حسيني الأخيرة «وردّدت الجبال الصدى»، حين صدرتا حديثًا باللغة الإيطالية في ذلك الحين.

الذين قرأوا شيفرة دافنتشي التي صدرت منذ سنوات عدة، كعمل أول، ورسخت كاتبها في درب الكتابة بعد ذلك، يلاحظون مدى دقة الكتابة وإتقانها، حين توضع أشياء كثيرة لعلها من نقش الخيال كوقائع تاريخية حقيقية..

تلك الطوائف الدينية القاسية، والأسرار التي لا يعرفها سوى القِلة، ويبحث عنها أهل الشر، من أجل الشر وحده.

هناك كثير من التشويق وكثير من الملامح البوليسية، داخل نص معقد أشد التعقيد، ويجد القارئ نفسه في النهاية يلهث أيضًا من أجل أن يسبق الكاتب في وضعه لنهاية النص. صفحات كثيرة مليئة بالحكايات، لكن التشويق لا يزال قائمًا حتى النهاية.

لقد كانت شيفرة دافنتشي، بلا شك، وبما حققته من شبه اكتمال في صنعة الرواية التي يحبها معظم القراء، هي المصيدة التي ألقاها براون من أجل مستقبل كتابته، حتى أصبح هناك من ينتظر كتبه بفارغ الصبر، ومن يقف في طوابير طويلة لاقتنائها، وهناك في العربية من يكتبون لدور النشر أن تسرع بترجمة أي كتاب يصدر له، وهذا ما يحدث دائمًا.

إذًا كان براون في الشارقة هذا العام، وخاطب جمهورا لا يتوفر لأي كاتب عربي مهمًا بلغ ثقله، ومهما صنع من تاريخ، وكتب ما لا يكتب، لقد تحدث عن طقوسه، وأنه يكتب بشكل يومي، يستيقظ في الرابعة صباحًا، التي يعتبرها وقت الإلهام، ويظل يكتب ساعات الصباح. نعم معظمنا يستيقظ في تلك الساعة، ولكن لأغراض أخرى لا علاقة لها بالإلهام. براون هنا يستيقظ من أجل وظيفة لها عائدها بالتأكيد، حين تكون الكتابة وظيفة حقيقية ومنصفة فلن تمرغ صاحبها في الوحل، وتملأه بالديون، وتجعله يصارع

ناشري إبداعه من أجل حقوق لن تسمى حقوقا على الإطلاق لو أدخلت في ذلك التصنيف في أي بلد غربي.

ما حققه دان براون يقودني للحديث عن أهمية كتابته من الناحية الإبداعية، البعيدة عن البهرجة، ومنتجعات «الأكثر مبيعًا» التي يعتبر أحد زبائنها الدائمين، فأنا أعتقد أن كتابته مهمة فعلًا، ولكنها ليست أهم من كتابات أخرى لعدد من مجايليه، لم يحققوا ما حققه، سواء أكان ذلك في أميركا أو أي بلد آخر، هناك كتابات تغوص في أعماق النفس أكثر، كتابات تحتفي باللغة أكثر، وكتابات لا تنتهج التشويق فقط من أجل متعة القارئ، بل تضع التشويق، وبهارات أخرى، في نفس النص.

وأستطيع القول إنه يوجد دائمًا في كل عصر كتّاب هم في الأصل جيدون، يتم انتقاؤهم، وتسويقهم بطريقة جبارة منذ نصوصهم الأولى، فيظلون بعد ذلك في ذاكرة القراء لا يبرحونها، بينما آخرون بنفس الجودة أو أفضل، يتم نسيانهم تمامًا.

ومشكلة الآداب والفنون أنها ليست الصنعة الأكثر شعبية في المجتمعات، كصنعة الرياضة مثلًا، لذلك قلة هم من يصبحون نجوما، بينما في الرياضة تجد مئات النجوم الذين يعرفهم الجميع.

كما أن تذوق القراء يصبح مثل العدوى أحيانًا، فتجد رواية مثل الخيميائي لباولو كويلو، على بساطتها، وإحساس القارئ أنها تخاطبه بلغة أقل من لغته، أو تخاطب ابنه الصغير، قد أصبحت في يوم من الأيام، هي الرواية

المفضلـة، لجميـع القـراء في العالـم.

بالتأكيـد إذًا كان بـراون مبتهجًـا وهـو يخاطـب جمهـورًا عربيًـا لأول مـرة في الشـارقة، ويكتشـف، أو لعلـه يعـرف مـن قبـل، أنه مقـروء في بـلاد العـرب بصـورة هسـتيرية، وقطعًـا أراد الجميـع مخاطبتـه وجهـا لوجـه، والتقـاط الصـور معـه، وسـنجد في ذلـك الجمهـور المنبهـر كتَّابًـا مـن المفـترض أنهـم محميـون مـن الانبهـار، بوصفهـم أنجـزوا شـيئًا في ذلـك المجـال.

ولأن المقارنـات رغـم مـا تحملـه مـن سـطحية وتجهُّـم وسـلوك طائـش أحيانًـا، فإنهـا ضروريـة في مثـل هـذه الأمـور، مـن أجـل أن نصنـع لكتابتنـا العربيـة مجـدًا، فلـن أمـل ولـن يمـل غـيري مـن الذيـن يكتبـون مـن ترديـد ضرورة الانتبـاه لصناعـة الكتـاب في الوطـن العـربي، وضرورة التركيز عـلى الكتابة الراقيـة الـتي تتضمـن مجهـودًا علميًـا ومعرفيًـا لإبرازهـا عـلى كل الأصعـدة، وتشـجيع القـراءة ببرامـج دوريـة ومكافـآت مجزيـة، مثلمـا فعلـت شركـة أرامكـو السـعودية في تخصيـص مسـابقات للقـراءة حققـت مـردودًا عظيمًـا مـن حـب القـراءة لـدى الشـباب في موسـمها الثـاني الـذي شـاركتُ فيـه.

أخـيرًا، لقـد شـعرت بـالأسى فعـلًا حـين أخـبرني كاتـب صديق ورسـالته تـنز ابتهاجًـا، أن روايتـه الأخـيرة باعـت ثلاثين نسـخة في معـرض الشـارقة، نفـس المعـرض الـذي يحـضره دان بـراون، وخاطـب جمهـوره.

هنـا ثلاثـون نسـخة تصنـع الفرحـة في بـلاد هـي أحـق بـأن تصنـع طقـوس القـراءة مـن غيرهـا، ولكـن!

إلهام الكوارث

الذين يشتغلون بمسألة الإبداع، شعرًا ونثرًا، تصادفهم ولا بد أفكار كثيرة يستوحون منها كتابتهم، والموهوبون منهم عادة يستطيعون أن يصنعوا من أي فكرة، حتى لو كانت مجرد جنين، غير واضح الملامح، ورد إلى الذهن فجأة، كتابة كبيرة، أو عالمًا واسعًا يضج بالحياة كلها.

وهناك أفكار بعينها تبدو لي محورًا مهمًّا، تدور حوله القصص والروايات، وتأتي في كل مرة بثوب جديد، مختلف عن ثوب ارتدته من قبل، بمعنى أن كل مبدع استوحى تلك الفكرة، كتبها بطريقة مختلفة عن غيره، حتى لتبدو كأنها فكرة جديدة.

أعتقد أن أهم تلك الأفكار التي ذكرتها: تتبع الأحداث التاريخية، خاصة الثورات، والحروب، وإعادة إنتاجها، كتابة الحب من طرف واحد أو طرفين، كتابة التحولات في مجتمع ما باستخدام أدوات إما شديدة الحدة، وإما ناعمة، ثم ما أعتبره موضوعا حيويًا جدًّا، وهو الاستلهام من الكوارث، وكتابتها بطرق مختلفة في الروايات.

الكوارث بالطبع أنواع كثيرة، منها ما تصنعه الطبيعة أو ما يترادف وجوده مع حياة الإنسان منذ وُجد، مثل الأوبئة

المختلفة والزلازل والأعاصير والفيضانات، ومنها ما يصنعه الإنسان نفسه في سعيه الدائم للسطوة والسيادة وقهر بني جنسه، مثل الأسلحة الذرية والنووية والكيميائية، لنحصل في النهاية على كارثة حقيقية، بكل وقاحة المأساة ودمامتها، وأرجلها الكسيحة، وتلك الأرواح المحترقة لتي تركتها، وأعني هنا كارثة هيروشيما ونجازاكي المعروفتين. بالنسبة للأوبئة وانتشارها، وحتى للكوارث الأخرى، ماذا يمكن أن تقول الرواية عن ذلك؟ وكيف يمكن تحويل كآبة ورعب وموت أرعن، إلى رواية يمكن أن يقرأها أحد وهو مستلق على سريره قبل النوم، أو جالس على مقعد نظيف في مكان بعيد تمامًا عن المآسي؟

الموضوع هنا يعتمد على براعة المبدع، ولغته وقدرته على تخفيف الألم أو الصدمة بأسلوب ما، يرشفه القارئ ولا يحس بطعم المرارة الفادحة فيه إلا قليلًا، وهنا أزعم أن الصياغات الأدبية الراقية، والجمل الشعرية التي تدغدغ الحواس وتذيبها، لها دور كبير، بعكس المباشرة الفجة، التي ربما تصنع كابوسًا مزعجًا للقارئ، وتمنعه من إكمال العمل..

فالقارئ الحقيقي، على الرغم من بحثه الدائم عن المعلومة، فإنه يريدها أن توضع في ذهنه بطريقة هادئة، لا بطريقة خشنة وقاسية، وهذا ما يجعل أعمالًا معينة صدرت، وتحدثت عن موضوع مشابه، تختلف في عملية نجاحها. ففي حين نجح بعضها في زمن صدوره، واحتل

قائمة المبيعات، وأنتج أفلامًا سينمائية بعد ذلك، أخفق البعض أو لنقل أن نجاحه كان أقل، ولو صيغ بطريقة أفضل لنجح أكثر بلا شك.

الأسلوب الأدبي، هذا ما أشدد عليه دائمًا حين أسأل عن أهم أدوات صناعة الكتابة الروائية، وأعرف كتّابًا جعلوا منهج الرياضيات الجاف موضوعا لكتابتهم، ونجحوا في اجتذاب القارئ، بسبب الأسلوب السهل السلس، وآخرين تحدثوا عن الورد والزهر، ومواسم الربيع، ولم يجذبوا أحدًا، وذلك بسبب خلل الأسلوب.

في نماذج لقراءاتي، أعرج على نصين استحضرا كارثة هيروشيما، وصاغاها روائيًا، مستخدمين تقريبًا معظم المعلومات التي وردتنا عن تلك الكارثة التي لم يكن يظن أحد أن اليابان ستتجاوزها، لتصبح بعد سنوات قليلة، أعظم دولة صناعية في العالم، ذلك ما حدث حين ألقيت القنبلتان الذريتان على هيروشيما ونجازاكي.

النّصّان هما: «الظلال المحترقة» للباكستانية التي تكتب بالإنجليزية كاملا شمسي، والآخر: «القطار الأخير من هيروشيما» للكاتب الأميركي تشارلس بلغرينو. حقيقة لا أعرف متى صدر الكتابان بالضبط في لغتهما الإنجليزية، لكنهما نقلا للعربية في فترة متقاربة، ربما بفارق عامين أو ثلاثة. لقد قرأت الكتابين بالطبع، وحصلت على معلومات كثيرة ومهولة عن تلك الكارثة الملهمة ربما لكثيرين غير كاملا وبلغرينو، عثرت على شخصيات متعددة، على ظلال

مرسومة في الهواء الملوث، وشوارع خلت من الحياة، وأطراف ممزقة، وأرواح هائمة تبحث عن أجساد ترتديها، وأيضًا قصص حب ضائعة، وأمومة انتهت بلا معنى، وكثير جدًّا مما يرد في الروايات، وما لا يمكن أن يرد إلا في روايات البؤس وحدها.

بلغرينو استخدم الوثائق والشهادات المباشرة لأحياء نجوا من الحادث، وشهود، إما ساعدوا في صناعة القنبلتين، أو إطلاقها، وإما كانوا قريبين من الوهج ساعة أن انطلق وأطفأ الحياة في مدينتين يابانيتين.

كنت أقرأ قطار هيروشيما الأخير، وأحس بأنني أقرأ درسًا مزعجًا في تاريخ الكوارث، وتلازمني رائحة الجثث المحترقة، ورائحة القيء الذي خرج من الأحشاء في حدائق كانت مليئة بالياسمين واختلطت برائحته، أتعجل الانتهاء من الكتاب، وربما تجاوزت بعض الصفحات، الممتلئة بمعلومات لا يريد الذهن أن يستوعبها.

بالنسبة لكتاب كاملا شمسي، كان الأمر مختلفًا. هنا توجد قصص الحب وسط الحطام، يوجد الأسلوب الشاعري الذي يجعلك تعيش الليل كله مع جثة من دون أن تحس بغربة أو وحدة أو فزع، وتقنية الرواية أيضًا كانت مختلفة، حيث تنتقل من مكان إلى مكان، متتبعة الشخوص، وتعود لمكان الكارثة من دون أن يحس القارئ، إنه خدع في خط السير، وأخذ من محطة كان يتتبعها إلى محطة أخرى وأعيد، بنفس حافلة القراءة التي تقل ذهنه.

هـذا كان رأيي الشـخصي في أعمـال أطالعهـا كقـارئ، بعيـدًا عـن أي محـاولات لجرِّهـا نحـو طريقـتي في الكتابـة، ولـكي أكـون منصفًـا في النهايـة، أعـود لأقـول مـا قلتـه سـابقًا:

إن الكتابـة مـدارس مختلفـة، والقـراءة أذواق مختلفـة، ومـا يعجبـني قـد لا يعجـب الآخريـن، وهكـذا نكتـب ونقـرأ، ونعيـش جميعًـا مُحبـين لـلآداب بشـتى مدارسـها.

أمير تاج السر

وُلد أمير تاج السر بشمال السودان عام 1960، وتلقَّى تعليمه الأوليَّ هناك، وعاش بمصر بين عامي "1980-1987" حيث تخرج في كلية الطب جامعة طنطا. في المرحلة الابتدائية كان يكتب القصص البوليسية، ثم بدأ كتابة الشعر بالعامية والفصحى.

في العام 1987 كتب رواية اسمها "كرمكول" التي كلفت الكاتب رهن ساعته ليتمكن من طباعتها، فوجئ بأنها أحدثت أصداء كبيرة في القاهرة، الأمر الذي شجعه لمواصلة الكتابة.

في عام 1996 كتب روايته الثانية "سماء بلون الياقوت" بعد انقطاع عن الكتابة دام عشر سنوات، ثم تلتها رواية "نار الزغاريد" ثم "مرايا ساحلية" وهي الرواية التي أحدثت نقلة في تجربته الروائية، وكانت عبارة عن سيرة عن منطقة "بورتسودان"، كما كتب "سيرة الوجع"، ثم كتب "صيد الحضرمية" و"عيون المهاجر".

أما البداية الحقيقية كانت في عام 2002 مع روايته الأشهر "مهر الصياح" وهي التي حققت انتشارًا كبيرًا وأصداء بعيدة، وتلتها رواية "زحف النمل" التي انتشرت بشكل كبير، وحققت أكبر شهرة، وبعد ذلك تواصلت التجربة مرورًا بتوترات القبطي والعطر الفرنسي، وصولًا إلى صائد اليرقات وإيبولا 76 وأرض السودان...

الفهرس



سنواتٌ بعيدة من الحكي
والتلقي تصنع حكّاءً بدرجة
شاعر، يستلهمُ الكاتب الشاب
من ذكرياته تلك السفينة التي
سيُبحر بها تجاه القارئ،
ويستمتع القارئ فيها
بالكشافات التي تضيء
طريقه بين كتابات الشرق
والغرب وتصنع ذاكرة مُتعته..
فالحكاياتُ لا تنتهي، وصوتُ
الحكّائين يتردّدُ، يبعث النشوة
في النفس، وهذا ما سنخرج به
من ذاكرة الحكّائين.

الناشر





تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف